باب اللوق - ١

صدى رواية..
شخصياتها أقرب ما تكون إلى نفسى

إعـــداد
د. مجدى الطويل

الكتاب : باب اللوق - ١

المؤلف : د. مجدى الطويل

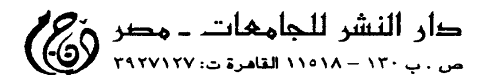
رقم الطبعة : الثانية

تاريخ الإصدار : صفر ١٤٢٠ هـ - مايو ١٩٩٩م

الناشر : دار النشر للجامعات

رقم الإيداع : ٧٢٤٨/ ٩٩

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 316 - 014 - 9



باب اللوق - ١



بسم الله الرحمن الرحيم



(١)

الطفل الصغير حديث العهد بالمدرسة والحياة..بهرته منطقة باب اللوق يوماً وهو مع والده في المطعم ..أبنية ضخمة جميلة تحيط بالمكان وميدان واسع يزدحم بالناس والآلات والحياة..تشوّق الطفل إلى هذا المشهد وقد خرج من منزله بملابس النوم وهجر الأولاد الذين كانوا يلعبون معه.. بدأ رحلة إلى باب اللوق من خلال مجهول لايعلمه ولكنه أخذ في المسير.. تعدّى حدود الدنيا التي كانت تحيط به.. تعدّى حدوده .. عبر شارعاً طويلاً بأكمله بحاراته وأزقته وبات لايعرف أحداً ولايعرفه أحد..ولكنه استمر ..اخترق منطقة وسط البلد وهو بهذا اللباس المُذرى الذى لايدرى عن عدم صلاحيته شيء ..كل هدفه هو الوصول إلى هذه البيوت الصفراء الضخمة ..وإلى المطعم الذى يموج بالحياة ..وجد نفسه في ميدان واسع عرف فيما بعد بوقت طويل أنه ميدان التحرير ،وتذكر ذلك الشارع الذى يسير فيه الترام وسار على رجليه فى رحلة استكشافية ..ووجد نفسه فى النهاية فى باب اللوق وأخيراً إلى المطعم حيث فوجئ به والده وهو على هذه الصورة ..والغريب أن الوالد الحنون لم يعنفه على ذلك بل استبقاه..ربما فرح بولده الصغير وميوله الاستكشافية..رجولة مبكرة.. فضول ..حب للمكان وارتباط به..أشياء كثيرة ربما يتضمنها الموقف ولكنه فى النهاية وجد علقةً ساخنةً من أُمّه في انتظاره.

دق الباب بعنف ..وفتح الصبى الصغير الباب ليجد "حامد" عـامل المطعم وهو فى حالة مُذرية..قميصه مُقطَّع..وهنـاك خـدوش فـى رأسـه ..ماذ ا بك يا حامد ؟..يا أحمد لقد وقعت من الترام وكان المفـروض أن أوصل هذه الأشياء إلىمكانٍ ما ..أخبر والدك في مطعم كلوت بك إننـى لن أستطيع إيصالها.. مطعم كلوت بك قريب من مكان السكن ويعلمـه أحمد..ولكنه تشاغل عن الأمر ..لعب ولم يعط الأمر أهميـة ..تغلبـت عليه طفولته ..وجاءت والدته وأخوته ولم يخبرهم بشيء ..بعـد سـاعات جاء والده ومعه صُحبة وسأل أهل المنزل هل جـاء حـامد هنـا ؟..وهنـا تذكر أحمد ما كـان يجب عليـه إبلاغـه ..نعـم يـا أبـى جـاء وقـال كـذا وكذا..وإذا بصفعة قوية تنتقل من كف الوالد إلى وجه الصبى الصغـير.. ربما تكون الصفعة الأولى وربمـا تكـون الأخـيرة .. فهـو لايذكـر غيرهـا وذهب الوالد بصُحبته غضباناً وترك الصبى يبكى بشدة.. تعلـم الصبـى من هذه الصفعة أشياءً كثـيرة ..تعلـم منهـا الاهتمـام بـالحديث وحُسـن التعامل مع المعلومات ..فما كان مُهمًّـا يجـب أن يعطيـه حقـه وعليـه أن يُبلّغ ما استؤمن عليه.. عليه أن يكون أكـثر يقظـة..وأن يـودّع طفولتـه كل يوم.

باب اللوق ترمز دائما عند الصبى إلى الخير.. كلّها خير.. فمنها يأتى الوالد بالفاكهة اليومية للعائلة وبالشوكولاتة والعصائر التي يحرص على حملها كل يوم ..عادة لم يتركها أبداً طوال حياته ..وأيضا حمل منها هدايا النجاح المستمر لأولاده ..الوالد كان حريصاً على الإنفاق على تعليم أولاده والأم كانت أكثر حرصاً فى متابعتهم فى دخول المدارس رغم أنها تجهل القراءة والكتابة إلى الآن..ولكنها كانت تعطى أشياءَ كثيرة لايفهمها من يملكون القراءة والكتابة وكأنها كانت تسعى لهدف خططت له مع الوالد وهو حُسن تعليم الأولاد.. فى هذه الفترة من الستينات المصرية كان هناك اهتمام كبير بالتعليم وبناء المدارس على طول مصر وعرضها ..هذه الفترة أثمرت شباباً ورجالاً على قدرٍ كبير من العلم وحُب العلم.. وكانت الوالدة على قدر المسئولية فهى تحمل ابنها "حمدي" المريض غير القادر على الحركة إلى المدرسة يومياً فى الذهاب والعودة ويتعجب المدرسون من صلابة هذه الأم وإصرارها.. ويحرص الأب على تعليمه النطق ومعالجة لسانه شبه الصامت عند الأطباء المتخصصين..وفى النهاية يُنتجان شاباً قوياً متعلماً وقد أبدله الله لهما رجلاً آخر .

الأم أيضاً حملت كل أبنائها الصغار إلى المدرسة وإلى الكُتّاب من قبل..يذكر أحمد أن أمّه حملته إلى الكُتّاب القريب و معه رغيف

بيض..وفي الكُتّاب صبى يتحكم فيه وفى الآخرين ..حتى رغيف البيض لم يَسلم من تحكمه .. كَرِه الكُتّاب وضربته أمّه كثيراً ولكنه لم يذهب وأصرّ على ذلك . ويوم دخول المدرسة حملته أمه حملاً وهو يبكى ..وقضى يوماً صعباً حتى رأى أمّه من جديد تتلقفه على باب المدرسة ..وبعد أعوام أحب المدرسة جداً لأنّه فى نهايتها كان يحظى بالنجاح والتفوق والأهم خَير باب اللوق ..الهدايا الجميلة من يد الوالد..ولا ينسى أحمد هذه الساعة المربعة الجميلة التى أهداها أبوه له يوم نجاحه فى الابتدائية وقد حصل على (٢٨٠) من (٣٠٠) . لقد نجح الوالدان فى إخراج الطفولة المائعة من أولادهم وجعلوهم مسئولين أقوياء كما لم يحرموهم من شيء .

الصيف هو باب اللوق .. ما أن تجيء إجازة الصيف حتى يحل الأولاد ضيوفاً على المحل ..ويذهبون على التعاقب.. مرة فى يد الوالد بعد الفجر ويعودون معه قبيل المغرب..أو يذهبون قبل الظهر لإراحة الوالد على الماكينة فى فترة الظهر والعصر ..تَعلُّم الحياة مبكراً كان هدفاً من أهداف الوالد تجاه أبنائه الذكور، وحظى الأخ الأكبر رءوف ويليه أحمد بالنصيب الأكبر من هذا الهدف ولم يشأ الوالد إرهاق أولاده..فكانت الأعمال يسيرة داخل المحل ولا تتعدى الوقوف بجانبه لمحاسبة الزبائن ولف الساندوتشات وغيرها من الأعمال المُعاونة..هذا إذا كان على "البنك" يعمل بيديه كما كان يحب حتى آخر أيام حياته..ولكنه فى معظم الأحيان كان يجلس على الدُّرج أو الماكينة يحاسب الزبائن ويدير المطعم من الخارج ..وفى هذه الحالة كانت معاونة الأبناء هى وراثة هذا الدرج أو هذه الماكينة من بعده .. حتى فى حالة عدم وجود عامل فى مكانه أو وجود نقصٍ ما فإن الوالد كان يُكمل هذا النقص ولم يطلب من أولاده أبداً أن يلبسوا "مريلة " الشُغل ويشتغلوا بأيديهم فى المطبخ أو "الترابيزات" أو "البنك"..هكذا كانت نظرة الوالد لهم ..مجرد مُديرين للمكان غير مُنغمسين فى العمل..والإدارة علمتهم الحرص والانتباه واليقظة.. سمع أحمد ذات مرَّة الوالد يقول إنّه لن يُهين أبناءه ما داموا ناجحين فى

تعليمهم..حافز كبير يأتى من فم الوالد ..يجعل "أحمد" متمسكاً بـالتعليم وحريصاً على التفوق حتـى لا يكـون فى النهاية طباخـاً أو عـاملاً..بل يكون أى شىء آخر إلا هذا .

(٥)

"شقّة جميلة وعظيمة جدّاً يا عبده" .. قالها تاجر الحلويات المعروف في باب اللوق محمد عبد الهادي صاحب حلواني الشام وقد كان صديقاً لوالد أحمد.. الشقّة تطُل على ميدان باب اللوق وفي عمارة من عمارات الميدان المشهورة..تُحفة معماريّة و صاحبها لا يريد إلا خمسمائة جنيه فقط..فهو يريد أن يغادر البلد في أسرع وقت مُمكن .. والغريب أن الوالد تردّد وقال له أنه سيأخذ رأى أم رءوف.. وجرت المناقشة أمام أحمد فهو يذكرها..أخذت المناقشة راحة بعد المغرب حتى ما قبل منتصف الليل ..وأم رءوف ترفض الشقة .. لماذا ؟ لأنها خائفة على الأولاد .. إنها تخشى عليهم من باب اللوق .. حى راقٍ وساكنوه من الأغنياء ..ولن يتواءم الأولاد مع هذا الحى، أو إنها هى شخصياً لن تستطيع أن تحيا مع هؤلاء الإرستقراطيين وهى التى تعيش على سجيّتها مع صديقاتها ومعارفها من الجيران..إنها تخشى على "عبده " نفسه أن يتغيّر وأن يجذبه هذا الحى ولا تعلم مدى انجذابه ..وقالت له أيضاً : كيف ستحل مشاكل المدرسة؟ أين سيذهب الأولاد فى هذا الحى سيضطرون إلى ركوب المواصلات .. وهذا خطر عظيم .. المهم فشلت مهمة الوالد فى إقناع الوالدة رغم اشتراك الأولاد فى الحديث وترحيبهم بذلك ..رفضت الوالدة: إذ كيف ندفع إيجاراً للشقة ونترك شقة فى بيت مِلك وهو فى وسط البلد

أيضاً في كلوت بك ؟..أبداً.

رجع الوالد إلى صاحبه .. فقال له صاحبه: أسلّفك ولكنه قال له:وهل سأجلس فيها وحدي..أبداً.. وقال الوالد فيما بعد إن محمد عبد الهادي قال له يا عبده أنت رجل فقري....وبالطبع لم يكن الوالد كذلك ..ولكنه مرتبط بعائلته ..وفيما بعد تندّر الوالد بهذا الحدث نادماً على أنّه أطاع أم رءوف ..وفي الحقيقة فإن الأولاد أيضاً نادمون ومغتاظون .. وكلما مَرَّ أحمد على البيت الأثرى الجميل القوى البناء يذكر هذه الحادثة ..ربما كانت منعطفاً هاماً في حياة الأُسرة بلا شك ..وهذا المنعطف أدركته أم رءوف..والله وحده يعلم ماذا كان سيحل بالأسرة لو أنهم انتقلوا إلى هذا الحي الإرستقراطي الغني وأصول العائلة في الجمالية وباب الشعرية وقرية جروان في المنوفية .. وهل يصلح الانتقال من باب البحر إلى باب اللوق .. فرق كبير بلا شك.

"الكباب" أكلة لها طعم خاص جداً فى مصر.. وكانت باب اللوق سبباً فى ولع أحمد بهذه الأكلة..مسبقاً ،فإن الأم لا تسمح بأن يُسرف الوالد فى شراء وجبات جاهزة للأولاد فهى دائما تطبخ لهم ما لذ وطاب من الطعام ولكن الوالد كان يشترى أحياناً وجبات جاهزة مثل السمك والكبدة المشوية والكباب ..وتزايدت هذه الوجبات مع ارتفاع حالة الأسرة المادية وازدياد الضجر من الطبيخ عند الأم التى تنشد بعض الراحة.

اكتشف أحمد أن والده والمعلم "عبد العال" متعهد الخضار للمطعم يغيبان فترة الغداء سوياً كل يوم اثنين..ولذلك كان يذهب إلى المطعم يوم الاثنين وهو ليس يومه انتظاراً لأن يأخذاه معهما مَرَّة .. وفعلاً أخذاه مرة عند كبابجى يسمى "الشعراوى" وهو واحد من الأسماء التى ارتبط بها الوالد فى مجموعة تجار باب اللوق على الرغم من أنه بعيد عن المنطقة بعض الشىء فهو أقرب إلى التحرير منه لباب اللوق..ونزلت الطلبات وكان نصيب أحمد هذا الطبق اللذيذ من الكباب ولكنه وجد طبقاً من الملوخية وآخر من الخضار عند المعلم عبد العال يزيدان على نصيب الآخرين فى المائدة ..وطاقت نفسه إلى الملوخية..فأخذ قطعة من الخبز ونزل أكلاً فى الطبق .. ولم يلاحظ الصبى الصغير والذى تصرف بعفوية أن عيون والده توارت خجلاً من

عبد العال ..ووجد أباه يعزم على عبد العال بطبق آخر بديل ولكن عبد العال رفض ذلك وربَت على رأس الصغير ..وانتهت الوجبة وشربوا الشاى من يد المعلم الصديق الذى رحب بهم ..كانت هذه الوجبة على حساب عبد العال، وبعد ذلك تتعاقب عليهما أسبوعياً وفى طريق العودة إلى المطعم قرص الوالد أُذن الصغير ..لماذا أكلت من طبق المعلم؟ وفهم أحمد أن هذا خطأ ..ربما يفهم ذلك لأول مرة .. واحمرت أذناه خجلاً وكانت هذه المرة الأولى والأخيرة ولم يذهب يوم الاثنين إلى المطعم إلا للعمل ..كم تاقت نفسه لأيام الكباب.. ولكن الوالد بعد ذلك بسنوات جعل الكباب أكلة رئيسية أسبوعية خاصةً بعدما انتهى العقد المُبرم مع الكبابجى الذى توفّى وانهار المطعم من بعده انهياراً كبيراً..وإن كان المطعم مازال مفتوحاً ليكون مخزناً للذكريات.

منطقه باب اللوق لها فترة ذهبية ..تعرف بفترة محطة مترو باب اللوق، هذه المحطة كانت على بعد خطوات من المحل ..يذهب إليها آلاف من العمال والبشر من الفجر إلى الغروب..في هذه الفترة الذهبية راجت أحوال المطاعم والمتاجر والأسواق وبائعي الجرائد والكتب والصيدليات والتاكسيات وبالطبع كان مطعم بورسعيد أحد أهم هذه المحلات في المنطقة ..فهو يتعامل مع الغذاء الشعبي الرخيص..الغذاء اليومي الذى لا يستغنى عنه الكثيرون في مصر.

يذكر أحمد حالة المطعم في هذه الفترة الذهبية وهي فترة عاصرت صباه وأيامه الأولى في المطعم .. كان يذهب مع والده في الفجر ويجدان المطعم مفتوحاً وقد تم تجهيز الخبز الشامي الصغير للساندوتشات، ويدخل الوالد للمساعدة، بينما يهتم أحمد بالماكينة ..ويأتي البشر بكثرة الخبز الذى في المطعم وأقراص الطعمية وحبّات الفول التي في القِدر..عمل..عمل .. فتره ذهبية لا ينساها أحمد أبداً ويأتي عامل مثل "إسماعيل" ليجد جوالاً مُعداً من الطعمية والخبز والطرشي والسَلَطة.. يأتي يومياً إلا أيام الإجازات ليأخذ هذا الجِوال إلى العمّال في حلوان والمعصرة ..أيام أنبتت عند أحمد حب العمل وقَوّت فيه استعداده للمسئولية والجدية في الحياة وكذلك حسن التعامل مع الناس.

معظم الزبائن فى فترة الضحى كـانوا مـن الموظفـين فـى الشـركات التى تموج بها باب اللوق وأهمها شركة النصر للتليفزيون حيث كـانت فوق المطعم مباشرةً .. تعامل آخر راقٍ ومهذب وناس شـيك وعمليـون .. لابد أن هذا قد أثّر على ذوق أحمد وطريقته فى المعاملة.. واحــد مـن المُديرين مَرّ على المطعم وكان تحت مســئولية أحمد عندما كـبر وتركتـه الأسرة وذهبت إلى الأسكندرية .. قال له أيـن الوالـد ؟ فأخـبره ولكـن المطعم فى حالة عظيمة حتـى أحسـن مـن أيام الوالـد .. وشـكره أحمد ولكنّ الرجل بطريقة مدير مسئول أكّد كلامه .. ويوماً قال الوالد لأحمد عند عودته من باب اللوق لقد أثنى عليك المدير ثناءً عظيمـاً .. مـا زال أحمد يذكر هذه الحادثة وهو فى مقتبل الشباب عندما كانت العلاقة بينه وبين العُمّال ذهبية ويشتري لهم طعام الإفطـار علـى حسـابه فطـيراً مـن الفطاطري القريب ويأمرهم بالنظافة التامة والنظام وحُسن التعـامل مـع الزبائن .. وكان يُعطيهم مكافآت علـى ذلـك .. أيـام لا ينسـاها أبـداً.. ذات طعم خاص .

"علي السيد" .. شخصية لا يمكن تجاهلها في عمال المطعم .. رجل ذو مهارة ذهنية ويدوية خاصّة .. وواحد من الشخصيات التي ارتبطت بالمطعم منذ نشأته على يد "الخواجة" الذي باع المطعم للوالد بعد فترة من حرب بورسعيد ولذلك سمّي الوالد المطعم (بورسعيد) مع شريكه الحاج عبد الرحمن والذي يشاركه في بورسعيد كلوت بك أيضاً ولكن الشركة لم تدم طويلاً .. فاستقل عبد الرحمن بمنجم الذهب في كلوت بك وترك غيط القطن في باب اللوق للوالد الذي أخذه صابراً عليه ومجتهداً فيه حتى أفاء الله عليه بحقل بترول بينما صار منجم الذهب إلى عدم حتى أُغلِق جزء منه في التسعينات.

واحد من أسباب هذا التحول كان علي السيد بلا شك .. إنّه عامل شامل ينجح في كل شيء يقوم به.. فرض احترام آدميته ومهارته وشخصيته القوية على الجميع حتى الوالد صاحب المطعم الذي قدَّر هذه المواهب واحتفظ بها إلى آخر يوم في عمره .. صاحب مطعم حكيم يعلم مصلحة مطعمه جيداً .. قال الوالد لأحمد ذات يوم إن الخواجه أوصاه بهذا الشاب خيراً حين باع له المطعم وعمل الوالد بالوصية .. علي السيد كان يقف على "البنك" حيثُ إخراج الطلبات للزبائن سواء على السفرة أو للخارج يقف وحده يفعل كل شيء حتى عندما يتكاثر الزبائن كالعصافير على القمح ..وإذا طال الانتظار بعض

الشيء فإنهم يصبرون عليه لأنهم يريدون أن يأكلوا من يديه .. ومن عجيب ما رأى أحمد عنه هذا الذكاء اللمّاح.. فهو يحفظ طلب الزبائن فرداً فرداً وبخاصةً هؤلاء الموظفين فى الشركات ..نظرة واحدة من الشخص إليه تجعله يسرع فى العمل ليجد الطلب فى يده.

هذه المهارة والفطنة كانت تفيض بكثير على ما يجب أن يكون لعامل قد ساعد نفسه على القراءة وحده دون معلم كما أخبر أحمد ذات يوم فهو لم يدخل مدرسة.. ماذا لو أُتيح لهذا العامل فرصة التعليم لا شك كان سيكون مرموقاً .. والغريب أن علي السيد كان يدرك مدى مواهبه تماماً ويساوم عليها بين الحين والحين طالباً زيادة المرتب .. وقد وصل هذا الأمر وتحت إذعان مستمر من الوالد إلى حد لا أعتقد أن عاملاً فى هذه المهنة قد وصل إليه فقد كان يأخذ مرتب وزير إلى جانب أنه كان يعطى نفسه الحق فى الغياب دون عذر فى أى وقت يشاء .. كان على هواه تماماً .. ولذلك كان أحمد يجتمع به عند بداية سفر العائلة إلى الأسكندرية ويتوعده أو يترجاه فلا فرق فى أسلوب الحديث معه أن ينتظم فى العمل طيلة الأسبوع أو الأسبوعين اللذين انتظما فى رقبة أحمد .. ومن الغريب أنه كان ينتظم فعلاً ثم يبدأ سلسلة من أيام الغياب المتقطع عندما يعود الوالد.

كان الوالد عطوفاً عليه وكان يعامله كأخيه الصغير أو ابنه .. لقد أعطاه الشقة فى باب البحر بعد انتقال العائلة إلى الملك فى "كلوت بك" مفضلاً إياه على أخيه الصغير الذى كان يبحث عن شقة رغم أنه

قد تنازل عن عقد الشقة صورياً إلى أخيه وما زال أحمد يحتفظ بهذا العقد .. وإلى الآن يسكن علي السيد بدون عقد والأغرب أن الوالد كان يحاسب على الإيجار أيضاً وربما يخصمه من مرتب علي السيد .. وعند زواجه أعطاه مالاً وتأييداً معنوياً كأحد أبنائه، وعندما باتت زيارات الأسكندرية لمدة شهر سنوية جعل له نصيباً في أن يسافر إلى الأسكندرية ليقضي مع الأولاد يومين .. فتح له حساباً في المطعم يأخذ كما يشاء "على النوتة" كما يقولون ..كان الوالد يدرك أهمية هذا العامل في المطعم ويستبقيه ويصبر عليه حتى عندما يشطح به الخيال في الأرقام ويترك العمل فترة من الوقت ليعمل في محل مُجاور.. لقد كان عيبه الوحيد هو عدم الوفاء واغتصاب طلباته دون حوار يناسب العِشرة التي كانت بينه وبين الوالد.. كان الوالد يثق فيه في الأيام الأولى حتى إنه كان يجعله يفسح الأولاد في العيد ويُشغل أخاه الصغير كسائق للتاكسي الذي كان يمتلكه ويعامل والده الذي كان يعمل عند محمد عبد الهادي الحلواني معاملة خاصة تتمثل في فنجان القهوة الصباحي الدائم.

في الواقع عندما شب أحمد وأصبحت له نظرة نقدية ذاتية بعيدة عن الوالد (وكان ذلك سريعاً في مقتبل الشباب) فكر كثيراً في فساد هذه التصرفات واعترض عليها وطالب والده أن يعامله معاملة شديدة تتناسب مع الشطحات الكبيرة التي بدت على تصرفاته..فكان يطالب الوالد بتربية غيره داخل المطعم حتى يصبح ابناً للمطعم لا يقل

عنه وفاء للعمل ومهارة فى المهنة .. وكان يطالبه بألا يعمل بيده داخل المطعم وأن يصبح مديراً فقط وبالتالي يهابه العمال ولا يتصرفون في أى شيء يعن على فكرهم وكان يطالب الوالد بإقالة علي السيد إذا طلب ذلك حتى يرى بنفسه الفرق بين "عم الشيخ" كما كان يطلقون على الوالد وبين المعلمين الآخرين الذين لا يجرؤ العامل على رفع عينيه فيهم، ولعل هذه النقدية الذاتية هى التى نمت داخل أحمد لينفذها حينما آلت الأمور إلى الأولاد ..ويصارح نفسه دائماً بأن هذا العامل خسارة ولكنه لا يمكن أن يستمر وهو ينسى أنه عامل وبه طموح كبير لأن يكون شريكاً لا عاملاً .

وهكذا كان دائماً يعامل علي السيد "عم الشيخ" على أنه شريك فكلّما راج العمل يومين أو ثلاثة اختفى يومين أو ثلاثة فى المقابل ليضغط على عم الشيخ الذى يجد فرقاً فى العمل والنظام والنظافة داخل المطعم .. فيقبله على نظام جديد يكسب فيه علي السيد بضع جنيهات تضاف إلى راتبه .. والغريب أن عم الشيخ لم يهدد علي السيد ولو مرة أن يطرده خارج الشقة التى لا يملك لها عقداً صحيحاً إلى الآن .. وهى ورقة ضغط قوية ضد عامل يتبجح على صاحب العمل .. ولكنه لم يفعل ذلك .. ولم يشر إلى ذلك حتى عندما ترك المطعم لأكثر من شهر وعمل فى المطعم المجاور له ليسحب الزبائن الذين يعتقدون فيه هكذا كان "عم الشيخ" .. هناك جانب آخر فى شخصية "علي" وهو نوع من الكبرياء المغلّف الذى لا يفصح عن

نفسه مباشرةً .. ولكن الانسان يشعر به عند التعامل معه .. إنـه كبريـاء فطرى قَلّ أن تجده فى عمال هذه المهنـة الذيـن يجـب أن يسـمعوا كـلام صاحب العمل ولا يردّوه بل ويذعنوا له تماماً دون إعمال فكر أو القيام بحركة مضادة .

هذا الكبرياء الفطري لم يكن مفيداً للمطعم حينما يغيب عم الشـيخ قليلاً ويأتى مسئول من الصحة أو التموين ويكلم هذا العامل مستفسـراً عن شيء مثل البطاقات الصحيّة، التأمينات، الرخصة أو مراقبة البضاعة صحياً .. فإن نقاشاً قصيراً معه كان يجب أن ينتهي إلى ضيق نفس غالبـاً ما ينتهى بأحد أمرين على حسب معرفة المسئول بعم الشيخ إما انتظـار "عم الشيخ" والشكوى له من هذا العامل وبالتالى لا بـد مـن الاعتـذار أدبياً وربما (فى أغلب الأحيان) ماديـاً وإمـا أخـذ قـرار بتـأديب المطعـم وذلك بأخذ عينات من البضاعة (التـى يشـتريها المطعـم مـن السـوق) ..وهذه العينات غالباً ما تسقط لأن السوق المصري يعاني بشكل مُزمـن من عدم مطابقته للمواصفات حتى إنهم كانوا يتندرون فيقولـون: إنهـم لو أخذوا عينة (ماء) لخربوا بيتنا لأننا نعلـم أن المـاء بـه شـوائب وليـس نظيفاً تماماً كما كان يشتكي معظم الغيورين.. وما زالوا يشتكون.

هذا الجانب من شخصية علي السيد ربما يكون قـد أثّر علـى أحمـد بعض الشئ لأن أحمد حمل هذا الكبرياء أيضاً وهو لا يُذعِن بسهولة أمـام الواقـع إذا كـان كاذبـاً أو زائفاً..فمـا بـالك فـى مطعـم يعمـل بـه علـي

السيد ويديره أحمد! . حدث ذات مرة أن مفتشاً للتموين أغار على المطعم وكان "عم الشيخ" في الأسكندرية .. وقابله أحمد ببرود .. حضرتك مين ؟ طيب اتفضل المطعم تحت أمرك .. وذهب المفتش لعلي السيد الذى وجد نفس الرد فما كان منه إلا أن فتح دفتره على إحدى الترابيزات وأنهك معاونه العسكرى في جمع العينات.. حوالى سبع عينات وأصبحت هذه العينات حديث السوق كله إذ إنها فاقت المعدل العالمي لا المحلي وجاء عم الشيخ فعلم بالأمر واسود وجهه.. إن عيِّنة واحدة لها غرامة ساحقة وربما إغلاق المحل وربما السجن فما بالك بسبعة، وعندما علم بردّ أحمد وردّ علي السيد علم أن المطعم وقع بين فكّين مفترسين .. وأخذ يحاول إبطال العينات عن طريق المعارف في وزاره الصحّة فأبطل بعضها..ولكن أحمد علم أن هذاالمفتش يأخذ رشوة متكررة من أصحاب المطاعم فى المنطقة فكتب شكوى إلى وزير الصحة ولكنه لم يرسلها .. وبعد فترة إذا بالوالد يأتى له استدعاء إلى وزارة الصحة .. ويذهب الوالد ليُفاجأ أن هناك تحقيقاً في الشكوى المقدمة من مطعم بورسعيد ويسألونه في التحقيق: هل تتهم هذا المفتش بإساءة استخدام وظيفته وإرهاب المطعم حتى يأخذ رشوة ويقول عم الشيخ :"لا" .. ويعلم بذلك المفتش الذى يزور الوالد في المطعم ويعتذر له ويخبره أنهم قد اكتفوا بنقله إلى منطقة أخرى يزاول فيها نفس الدور .. ويشعر أحمد بالانتصار رغم إنه لا يعلم من الذى أرسل هذه الشكوى حتى الآن؟ .ولكن الوالد يقول لابنه : كنت ستخرب بيتنا.. لا تفعل ذلك أبداً مرة أخرى ابتعد عن المطعم أرجوك .

الطريق إلى باب اللوق من منزل أحمد في كلوت بك طريق جميل ومُسلي يخترق وسط البلد بأبنيته المتفاوتة بين القديم والحديث والمليء بالمحلات ذات الأنشطة المتنوعة .. ومن النادر أن يلجأ أحمد إلى ركوب تاكسي أو خلافه إلا عندما يكون عليه فتح المطعم في الصباح الباكر.. هذه التمشية الجميلة التي تأخذ حوالى نصف الساعة أثّرت فى أحمد تأثيراً بليغاً .. ففيها عرف متاجر الكتب .. وجذبته القراءة والثقافة بشكل عام إليها منذ صغره .. كان من النادر ألا تلتقط يديه كتاباً يشتريه وهو ذاهب أو عائد من باب اللوق من كثير من الفرشجية الذين يسيطرون على مساحات الرصيف في أماكن كثيرة .. بالطبع كانت البداية كتب لأرسين لوبين وشرلوك هلمز والتى كانت منتشرة فى الستينيات بشكل كبير .. ثم تطورت الأمور إلى كتب الحقائق الدينية وخاصةً كتب "مصطفى محمود" لأنها كانت تمثل أزمة جيل فى هذا الوقت .. جيل ممزق بين العَلمانية والإلحاد من جانب وبين الإسلام من جانب آخر، هذه القضايا لفتت نظر أحمد مبكراً وصرف عليها كثيراً من نقوده وأعطى لها الكثير من وقته حتى أنه لم يكن يُرى إلا قارئاً.

قسّم أحمد السنة إلى قسمين: دراسة علمية مدرسية فى العام الدراسى وكان يشتري لها كتباً علمية ميسّرة يحاول أن يفهم بها

الإشارات العلمية الموجودة فى الكتب المدرسية والتى لاتُشبع نهمه للمعرفة.. وكان يحاول أن يفسر حركة الأشياء من حوله وهو صغير.. درس ما يُسمّى بالمحرّك الترابيني ذات يوم وحاول أن يُسقِط نظريته على حركة السيارات وعلم بعد ذلك أنّه مُخطئ .. المهم أنه كان يحاول دائما تفسير المحسوس الموجود حوله..وكان شغوفاً بتركيب المواد ويذكر وهو فى سنوات الابتدائية أن تعجّب من مادة "الأستيكة" (المسّاحة) وذكر ذلك لأحد زملائه ويسمى عبد اللطيف وكان ابناً لبواب المدرسة فإذا بهذا الولد يقول له إن الأستيكة مصنوعة من بَرى القلم الرصاص وأنّه عند بلّها بالماء وضغطها تتحول الى أستيكة .. ولم يُكذّب أحمد خبراً وأنشأ التجربة وأفنى قلمه الرصاص تقريباً حتى يكون عنده أستيكة محترمة.. وحزن أحمد لأن هذا الولد ضحك عليه.. وتعلم ألا يأخذ أمثال هذه الحقائق من فمّ الناس .. وأصبح بداخله شك ربما مازال يلازمه حتى الآن.

أمّا القسم الثانى من عامه فكان يقضيه فى الإجازة بين الكتب الأدبية والدينية .. مروراً بروايات أرسين لوبين وشرلوك هلمز ومجلات سمير وميكى والوطواط والسوبرمان، إلى المقالات فى جريدة الأهرام؛ الجريدة المفضلة لدى الوالد والذى كان يقضى فيها ساعات عند رجوعه للمنزل قُبَيل الغروب .. ثم الكتب الدينية المُيسّرة وكتابات مصطفى محمود وأنيس منصور وإحسان عبد القدوس وتوفيق الحكيم وطه حسين ثم العقاد ..وكان التعرف على العقاد من

خلال قصته (سارّة)، وذلك لأن العقاد سيكون ضيفاً على مُقرر اللغة العربية في الثانوية العامة.. ولذلك عليه أن يقرأ له وأن يعتاد أسلوبه..وهكذا انجذبت قدم أحمد الى أدب العقاد ليولع به أيما ولع وليؤثر هذا الرجل العظيم في حياة أحمد أيما تأثير.. فإسلاميات العقاد حسمت القضية الدينية عند أحمد وانتصرت للإيمان با لله وبعظمة الإسلام ورسوله وصحابته الكرام .. كانت العبقريات فتحاً أدبياً وفكرياً لأحمد .. وبعدها اشترى أحمد كل كتب العقاد التي وقعت في يديه وصار محباً للرجل ومقدراً له إلى الآن..مُعظم هذه الكتب اشتراها أحمد في طريقه إلى باب االلوق ..وعندما كبر أحمد وأصبح في المرحلة الجامعية ازدادت الكتب عمقاً سواء الكتب العلمية أو الأدبية والدينية.. كُتب من أمثال تهافت الفلاسفة للغزالي، وتهافت التهافت لابن رشد، ومعالم الفلسفة الإسلامية لمحمد جواد مُغنية، وأدب إليا أبي ماضي شاعر المهجر، وأشعار ناجي و مسرحيات توفيق الحكيم وغيرهم ممن كانت تقع عليه يد أحمد.. وكان لدار المعارف في وسط البلد دور كبير في هذا، خاصة في الكتب الأدبية والدينية.

ولكن الكتاب الذى لفت نظر أحمد إلى إعجاز القرآن بشكل مباشر هو كتاب للأستاذ الخطيب يسمى "إعجاز القرآن" .. هذا الكتاب لفت نظر أحمد إلى إعجاز القرآن الكريم وحل له مشكلة فكرية ضخمة بأن هذا الكتاب هو من عند الله وليس من عند بشر وهو المَنحى الذي أثّر على فكره ووجّهه وِجهةً صحيحةً .

على أن الأمر لا يخلو من الطرافة .. فوسط البلد لم يكن كلُه أدب وعلم .. ولكنّه البشر.. الحياة.. الناس.. بكل تفاوتهم فى المقاييس .. فالمرأة تملأ الشوارع بجمالها وفتنتها التى يجب أن تجذب عين المراهق .. خاصةً وأن الأمر فيه حريّة شخصية تترك لأى امرأة أن تفعل ما تشاء وتلبس ما تشاء، ولكن الآداب العامة والذوق العام لم ينهار إلى حد الفسوق العلني كما رأى في شوارع "تريستا" فى أيطاليا يوماً ما .. من أطرف ما حدث له ولا ينساه عن هذه الحياة البشرية المائجة فى شوارع وسط البلد أن رجلين قد أوقعاه فى حبال النصب.. رجل يحمل خاتم ذهبى ويتحادث مع رجل آخر بأول شارع سليمان عند "الأمريكين" ويحتد النقاش بينهما و أحمد قادم إليهما فيعرض أحدهما على أحمد القضية: هذا الرجل يريد نقوداً مِنى وأنا أعرض عليه هذا الخاتم الذهبى ولكنه لا يريده لأنه لا يعجبه هل تلبس خاتماً ذهبياً يقول أحمد نعم ..فيقول له الرجل الآخر هذا الخاتم ذوقه جميل ولكنه صغير الحجم .. فيقول الرجل الآخر أنا مستعد أستبدل هذا الخاتم بخاتمي وتغور عن وجهي.. وأحمد الصغير وهو فى الأيام الأولى من الإعدادية لا يفهم بالضبط ما يحاك حوله ويحاول أن يمشي فيقولان له خذ هذا الخاتم الكبير وخلصنا من هذا الموقف وأعطنا خاتمك الصغير أنت الكسبان ومستعدين نروح لأى محل ذهب لتقديره ولا يعرف أحمد كيف خلع لهما الخاتم هدية نجاحه فى الابتدائية من الأم ليلبس هذا الخاتم الكبير الثقيل ويختفى النصابان ويتركان "أحمد" فى حيرة من

أمره.. كيف خلع الخاتم؟ .. وما هذا الخاتم المزعوم؟ .. ويعود إلى المنزل مرة أخرى ويعرضه على محل فى كلوت بك ليقول له: هذا "فلصو" يا ولد "فلصو"! .. ماذا أقول لأمِّي .. ويذهب إلى المنزل يبكي ويقول لأمِّه لقد شمّمنى أحد الرجال فى شارع سليمان باشا وأخذ مني الخاتم بعد أن دختُ قليلاً ولا يُصدقه أحد .. ويتعجب الوالد من الذى "شمّموه" فى سليمان باشا هذا الشارع المكتظ بالنّاس فى كل زاوية من زواياه.. المُهم.. ذهب الخاتم وحزن عليه أحمد وحزن أكثر على أن رجالاً أشقياء قد استهبلاه وضحكا على ذكائه وفطنته.

درسٌ آخر تعلمه الصغير: ألا يعظم ما يقوله الناس فوراءه ما وراءه وأنه يجب عليه أن يفكر دائما فيما يُقال ويعقله قبل أن يسرق منه خاتمٌ آخر.

انطفأت الحركة فى شارع منصور بباب اللوق بعد إغلاق محطة المترو ونقلها بعيداً إلى قرب "السيدة زينب" ..ذهب العمال إلى أعمالهم من أماكن أخرى وانقطع التُجّار الصغار الذين كانوا يحصلون على التموين من المطعم .. ورأى أحمد فى عيون والده حزناً وضيقاً.. ولكنّه لم ينعكس على المنزل وحُسن معاملة الأولاد كما أن قِطار تلبية الطلبات اليومية لم يتوقف .. وبالتالى لم يشعر الأولاد بأى فرق .. ولكن هذا الموضوع أثّر على الوالد والأم وشعرا بالخوف من الركود والخسار الزبائن عن المطعم.

ولكن التاجر الشاطر يجب أن يحاول وأن يخاطر وأن يبحث عن الرزق فى أقطار الأرض، فمن التشاور مع الأم نشأت فكرة طيبة نفّذها الوالد على الفور..اشترى تاكسياً "مرسيدس" جاز وأخذ فى تشغيله ..يذكر أحمد أن أول سائق لأول تاكسى تملكه العائلة كان اسمه "صلاح صيام" وكان نوبياً يملك ما يحمله الناس النوبيون من أخلاق سمحة ولطف فى الحديث وكرم فى النفس ..ونجح مشروع التاكسي مما شجع الوالد على شراء المزيد حتى أنه تملك حوالى ثلاثة تاكسيات يوماً ما كانت كلها تتجمع فى وقت انصراف الشيخ ليحاسبها أحمد أو رءوف أو عم الشيخ حسب الموجود وكان لكل تاكسي دفتر منتظم، وبعد ذلك يختار عم الشيخ تاكسياً ينقلهم إلى المنزل وعندما

اشترى تاكسياً على الزيرو (١٢٨) فيات بحوالى ألف جنيه مصرى أصبح هذا التاكسى هو السياره الرسمية لعم الشيخ فى حِلّه وترحاله.

فاز كمال السيد (و هو أخٌ لعلي السيد) بأحد هذه التاكسيات.. وتعلم أحمد مبادئ قيادة السيارة مع كمال فى أحياء المهندسين الهادئة وكانت هذه هى بدايات تعلمه للقيادة إلى أن عمل عندهم سائق اسمه مصطفى والذى مكث معهم عمراً طويلاً والذي تعلم أحمد على يديه الكثير من فن قيادة السيارات.

ولا أظن مراهقاً إلا ويحلم بتعلم القيادة .. إنها الحرية والرجولة والسيطرة وتحقيق الذات والانطلاق وبلوغ هدف محدود بوسيلة محدودة من النجاحات المستمرة التى يزهو بها صاحبها ويشعر من خلالها بالسعادة، إنه يأخذ سيارته ويهرب من مشاكل المنزل ومشاكل العالم أجمع ليحقق ذاتة منفرداً داخل سيارته وخاصةً إذا ما أشعل سيجارة وأخذ يحاكى شعور الرجال.. فى أحد طرق مدينة نصر، انطلق بالسيارة مسرعاً ورغم تحذير كمال أخذ يجرى ويجرى كالحصان الهارب من معتقلـه .. ورغم أن الأمر كاد أن ينتهى بكارثة إلا أن الله سلَّم ولكنه أصبح ظمآن للحرية ولكسر القيود.

وكالعادة، كان الوالد يعامل السائقين معاملةً كريمة وظلوا يعملون عنده فترةً طويلة ولكن إمبرطورية التاكسي لم تدم .. ففى بداية السبعينيّات تغيّرت الحياة بشكل سريع فى مصر ولم تصبح الحياة لها الطابع الهادئ الذى كان ينعكس على ميدان باب اللوق حيث ينتظر

قائدو التاكسيات فى صفٍّ طويل يختار منهم الزبون من يحب.. تغيرت الحياة فجأة.. زاد الطلب على التاكسي حتى أصبح الزبون يركب مع الزبون وكان ذلك مستهجناً جداً فى بداية الأمر إلى أن تعوَّد الناس على ذلك وربما يستغربون الآن من السائق المُكتفي بزبونٍ واحد..كذلك كان للعدّاد قُدسيّة فى المُحاسَبة وكانت المحاسبة على كل "تعريفة".. وفجأة أصبحت التعريفة لا قيمة لها ثم أُلغيت بعد ذلك وفى النهاية أصبح العدّاد غير مُحترم على الإطلاق، وبالتالى أصبحت عملية الحِساب وهمية .. فالسائق يفوز بالتاكسي ولا يأخذ صاحب العمل إلا حساباً رسمياً من العدّاد لا قيمة له مّما دعى البعض إلى تغيير نَمط الحساب .. ولكن الوالد لم يفعل ذلك وأخذ يشكُ من السيارات واحدة بعد الأخرى حتى كان العلاج بالبيع أفضل الحلول واحتفظ بسيارة واحدة هى سيارة مصطفى ليكمل عليها أحمد تعلُّمه القيادة فى مدينه نصر والمهندسين ..هذه الساعات القلائل هى التى جرأته فيما بعد فى أن يمتلك سيارة بعد أن عمل معيداً فى الجامعة.

"الثانوية العامة" .. رعب المنازل وعنق الزجاجة فإمّا قاع النهـر أو النهر المفتوح إلى مصب البحر إلى المحيط .. ها قد مرّت السنوات سريعاً ليبلغ الصبى مبلغ الشباب وتقع عليه مسئولية محدودة.. ليست النجـاح فقط ولكن نجاح مشروط بمجموعٍ كبير.

كَبُر أحمد وكبر معه غـرور خَفى وتزمُّر وتمـرُّد على قيـود العائلـة والمجتمع.. كَبر معـه تَطلـع إلى حريـةٍ وانطـلاق يُطلقـان مـا بداخلـه مـن مشاعر وأحاسيس تجاه الله والوطن والمـرأة والنـاس.. لقـد أخـذ يُكـوّن لنفسه قوالب فكريـة شـارك فـى تأسيسـها مُفكـرون وفلاسـفة ورجـال دين..ولكن كان دور الدين فيها ضعيفاً .. ربما من منشـأ الأسـرة ذاتهـا حيـث الصـلاة نـادرة وربمـا مـن منشـأ المدرسـة حيـث عـدم الاهتمـام بمقررات التربية الدينية حيث الموضوعـات خـارج المجمـوع وبعيـدة عـن الحوار والإسقاط العصـري .. وربمـا بسـبب فِكـر المؤلفـين فـى الكتـب الأولى التى قرأها حتى أن فِكره يومئذ كان أقرب للشك منه لليقين فـى وجود الله والرسل والقرآن.. وربمـا يعـود للحالـة السياسـية فـى نهايـة الستينيات قبل وبعد حرب ٦٧.. وهذا التمزق واليأس الذى ساد روح الشباب الصغير الذى لا يفهم كثيراً ما حوله مـن حـروب بـين الأفكـار والتطلعات وحب الزعامة وأنانية النفوس..إنّها ظروف تتجمـع لتخـرب النفس وتطفئ بهجة الروح وتُشعل الهم فى الرأس الصغير.

ربما أدى به ذلك إلى بعض الانعزال والاكتفاء بأصدقاء قليلين جداً وبعض النشاطات المحدودة فى لعبة كرة القدم التى كان يجيدها ويلقى مهارته فيها هارباً من اليأس والإحباط ربما أدى ذلك إلى الانعزال فى ركن المنزل كاتباً أو قارئاً .. وكانت تلك الأيام هى بدايات التأليف..نوع من المحاكاة لحوارات توفيق الحكيم وعمق العقاد.. وطبعاً لابد من الصدام مع جيل الكبار ..هذا الجيل الذى أنتج اليأس والفشل ..وكان والده يمثل هذا الجيل عنده.. وكان أحمد يناقشه بقسوة كما يناقش الأستاذ مجدي توفيق الجار المثقف الذى كان ينزل لشقتهم كثيراً .. وكانت المناقشات فى السياسة والاقتصاد والدين وكان فكر أحمد فيها ناقداً لاذعاً للنظام الذى مثّله جمال عبد الناصر ثم من بعده السادات.

ربما كان يهرب إلى التفكير فى المرأة أحياناً ..ولكن الله حماه من أى ذنب وفكرته عن المرأة استقاها من العقاد فى قصة "سارة" حيث يجب أن يحظى بالمرأة حظواً كاملاً ..جسداً وحسّاً.. مِلكية كاملة..عواطف لا تقبل التجزىء والإ فالشك والقطيعة .. وفى غياب الوازع الديني..فكر أحمد فى إقامة علاقات ولكن لسبب لا يعرفه لم يوفق- والحمد لله- إطلاقاً .. حيث كان يُحجم فى لحظة الإقدام.. كان هناك شىء فى فطرته يمنعه من ذلك..ولذلك كان يكره من بعض زملائه معاكسة البنات وكان ينهرهم على ذلك ولا يصاحبهم .. هو شىء من أدب النفس وربما يعود إلى أصول دينية لا يذكرها..لقد حماه الله من

هذا الطريق رغم روحه الحزينة ونفسه الموحشة فى هذه الفترة من حياته.

لعبت الأسكندرية دوراً فى هذا أيضاً.. لقد انبهر بها أيما انبهار..أسَرته حركة الأمواج والبحر المرتد بحرية إلى الآفاق.. وانتظامها فى الحركة رغم كونها تبدو حرة.. إن الأمواج تعرف ماتفعله، أما هو فلا يعرف بالضبط ما يفعل وماذا سيفعل؟. نمت هذه الأفكار الفلسفية داخله فى المرحلة الثانوية نمواً خطيراً أثَّر على علاقاته الطيبة بالأم والأب والأخوة.

راح لا يتقبل العادات والتقاليد التى تُكبِّل الإنسان وتُفقده حريته وقراره ولذلك قاوم بشدة قرار خطوبة أخته إلى ابن عمِّه ..وقاطع العائلتين .. فانقطع عن زيارة البلد حيث أعمامه ودار العائلة وانقطع نفسياً وروحياً عن أبيه وأمه مسببا المأساة لأخته ..حتى أنه كتب عنها قصة كانت هى بدايات ما كتب ..فيها يمنع شىء ما نمو الحب بين طرفين.. شىء ما يشدنا للخلف ويجعلنا شخصيات تعيسة تحيا بلا أمل وبلا إبداع .. لقد أثَّرت هذه القضية تأثيراً ضخماً فى أحمد منذ بدايتها على يد النساء الكبار فى العائلة ودَفع "مروة" فى طريق "رضا" .. وبينما لا تفهم بنت الثالثة عشر شيئاً فى أمورها ازداد اندفاع ابن العم إلى عائلة عمه التى تحيا فى القاهرة والتى لاترى الطين ولا تسكنه .. كان أحمد يتعجب من زواج يقوم على إرادة الآخرين وليس فيه الزوجان ..حساسيته للحرية ولفك القيود جعلته يأخذ موقفاً شديداً

من كل أعمامه ومن جدته لأبيه قبل وفاتها ثم من أبيه وأمه.. ربما يكون هذا الموقف قد أثّر على أخته الصغيرة وهى تنمو فى مراحل التعليم حتى إذا دخلت الجامعة رفضت بدورها القيود والإرث الاجتماعي الظالم .. وبات موقفها عقدة ضخمة فى طريق أحلام ابن العم حتى انتهت بفك الخطوبة فى موقف درامي حالِم .. شعر بعده أحمد أنه انتصر وأنه قد أنقذ أخته من عفونة اجتماعية يجب أن تنتهى.

ربما يكون قد ازداد الطين بلّه حينما قُبِل فى المدرسة الإبراهيمية الثانوية.. تلك المدرسة العريقة القابعة فى أحضان الحي الهادئ، "جاردن سيتي".. لقد دخل المدرسة كأكبر مجموع فى الإعدادية يدخلها وكان اسمه رقم واحد فى كشف المقبولين والمرتّب على شرف الدرجات.. وكان التحاقه بهذه المدرسة البعيدة عن المنزل قد زاد الهوّة بين كلوت بك وجاردن سيتي فى نفسه.. وكان نمط الشباب الذى دخل معه هذه المدرسة مغايراً بشكلٍ عظيم للأنماط التى عاشرها فى مدرسة باب الشعرية الإعدادية ..ورغم أن مدرسته الإعدادية لم تخلُ من القِيَم والنظام وحسن تربية الشباب وتنشئتهم على حب الله والوطن وحب العلم إلا أن أنماط الطلاب فيها عكست روح الحي القائمة فيه ..شباب صغير يحب الضحك والتسلى وقليلاً ما يحب العلم ويعمل على اكتسابه ..شباب ينمو فيهم أمراض الحى من الفقر والمخدرات والتسكع فى الطرقات بلا هدف وجلسة القهاوي والتزويغ من المدرسة وشرب السجائر ومعاكسة الفتيات وغير

ذلك..ولقد انخرط أحمد مع رفاقه فى باب الشعرية فى هذا كله وشاركهم بعضه مشاركة فعلية .. مشاركة كادت أن تضيعه..ولكن حادثة صغيرة قلَبته رأساً على عقب..لقد كان دائماً أول الفصل وبدون مجهود كبير حتى التحق بفصله زميلان جديدان "الجندي" و"عاطف" اللذان تقدما عليه فى الترتيب فى امتحانات نصف العام..والأخطر من ذلك أن أحمد وجد نفسه شبه راسب فى امتحان الرياضيات..ووجد احترام ومحبة الأساتذة تنتقل الى الزميلين الجديدين وخاصة الجندي الذى أخذ منه الشهادة الذهبية، بينما أخذ هو الشهادة الفضية بعد إعلان النتيجة النهائية لنصف العام..غضب أحمد من نفسه وبدّل سلوكه وبات مع الكتب والأوراق من جديد .. وانتصر لنفسه فى نهاية العام ليس على مستوى المدرسة فقط ولكن على مستوى المنطقة كلّها وكان من أوائل المنطقة وثالث مجموع فيها..شيء عظيم استحق عليه شيكات تفوق لازمته لمدة ثلاثة أعوام قادمة جعلته يستقل مادياً بعض الشيء عن العائلة وجعلته يشتري ما يحلو له من أدوات ثقافية كانت فى قائمة الممنوعات من قبل لغلو ثمنها.

فى المدرسة الإبرهيمية تبدّل الأمر..قابل شباباً فى فصل المتفوقين يحاسبون أنفسهم على فوات الثواني بلا مذاكرة وبلا عمل..شباباً تتطاحن بينهم المنافسة ويتعاركون على فقدان الدرجة ونصف الدرجة..شباب مصري له مستقبل زاهر يبدو مبكراً .. ودخل أحمد هذه الطاحونة وهو غير مؤهّل لها نفسياً، فحياته لا تخلو من الفوضى

وهي ليست بهذا القدر الرائع من النظام حيث لم يضع لنفسه جدول مذاكرة منتظماً أبداً.. حتى الجدول الذى وضعه فى الإعدادية للمذاكرة كان يحوي عناوين الفصول فى المواد المختلفة ولا يعين تواريخ للمذاكرة أو المراجعة فكل شيء مفتوح وحر يفعله أحمد بحرية وبلا قيود .. أما الآن فلا بد أن يحسبها جيداً .. كذلك أين الوقت للمهارات الفنية والرياضية التى يحبها وكان يقضي فيها وقتاً طويلاً؟..وأين الأصدقاء ؟..وأين الوقت للزيارات الاجتماعية وتبادل الآراء مع الأصدقاء....وأين الوقت للفسحة والذهاب إلى السينما وإلى النوادي والفرجة فى وسط البلد الذى يعشقه؟.. وأين الوقت للذهاب إلى باب اللوق؟.

لقد حافظ أحمد على مستواه داخل الفصل، فهو دائماً متفوق معهم ولكنه لم يحافظ على الأول ..وكيف يكون الأول ومعه عاطف عباس وهاني الديدي وكانت حياتهما مذاكرة فى مذاكرة مثالاً للطالب المنقطع للعلم والتحصيل ..ولا يدرى أين ذهب عاطف عباس ولكن هاني الديدي وشريف حتحوت أصابا المراكز الأولى دائماً ونافسهما مجموعة من الزملاء هم الآن صفوة من صفوة شباب مصر لهذا الجيل ومعظمهم أساتذه جامعات فى كليات الطب والهندسة.

مرات عاوده الحنين لأصدقائه القدامى. ولكنه كل مرة كان يزداد قناعة بقطع هذا الحنين.. بعد دخول المدرسة الإبراهيمية بأشهر وجد قدماه تسيِّراه إلى الزميل كمال ياسين والمشهور بينهم ب "كاكا"..

وقابله كالمعتاد مقابلة رائعة ..كان أحمد يعرف أهلـه جيـداً ..عـم ياسـين الطيب الحنون ووالدة "كمال" القوية التى يزينها لهجة أهل الصعيد السَّمحة الحنون.. وأخته الصغيرة ..كانت هـذه هـى كل عائلة كمال ياسين ..ورغم صِغرها فقد ضاق بها كمال بأحلامه وطموحاته وذكائـه غير العادي.. ذهب أحمد إلى صديقه يتذكر مضايقات كمال لأهله وإحراجه لهم وهو الفتى المُدلل الذى يجب أن يحصل على كل طلباته دون تأجيل.. ويذكر كيف كانت تشكو أمه لأحمد ولمنعم من "كمال" مر الشكوى فى حضوره وعدم حضوره، ولقد حاولا كثيراً أن يروِّضا هـذا الحصان البرى .. ولكن أى مروِّض يصلح هـذا الشـاب ؟وأى مدرِّب؟..بل بالعكس لقد نجح كمال في إسقاط شـقاوته عليهما وعلى الآخرين.. نجح أن يكون له شِلَّة يزوغ بها من المدرسـة أحيانـاً ويذهب إلى القناطر الخيرية بالسكة الحديد ويهرجون فى القطار أمام رجل وابنته ..ويظن الرجل أن أحمد هـو زعيمهـم لسـبب لايعرفـه أحمد حينذاك.. وقف الرجل المحترم وضرب أحمد قلماً على صدغه..وكان الرجل حازماً فى نبرته أمام الأولاد الصغار فانكتم الجميع وانتهى التهريج فـى القطـار ..لقد أعطى هذا الرجل المحترم درساً لأحمد لم ينسه قط ولقد أعانـه هـذا الـدرس علـى الخـروج مـن حادثـة خطـيرة حدثـت لأحمـد مـع كمـال وأصدقائه فى أتوبيس عام بالقاهرة..هذه الحادثة وقعت يوم زيـارة أحمد لصديقه بعد أشهر من دخوله الإبراهيميـة.. وجـد "كمـال" وأصدقـاؤه يسـتعدون لمبـاراة كـرة قـدم فـى أحـد أحيـاء القـاهرة

البعيد عن الجمالية مسقط رأس أحمد.. وذهب أحمد معهم وانتهت المباراة بخناقة .. وركب الأصدقاء أتوبيساً عاماً يعودون به إلى باب الشعرية وفي الأتوبيس هرّج كمال وأصدقاؤه تهريجاً فاضحاً بكلماتٍ ساقطة.. وكان يجلس بجانب أحمد الذى لم يشاركهم بل كان متضايقاً من ذلك..وآثار الصفعة القديمة من الرجل المحترم مازالت لها علامات على فكره وآثار الحى الجديد جاردن سيتى لها أيضاً علامات مستقبلية على خط سيره ..لم يحتمل راكبو الأتوبيس هذا النزق من الشباب الماجن وتعاركوا معهم ..هرب بعضهم ومسكوا كمال ياسين وضربوه ولكنه قفز من الأتوبيس مهاناً أمام نفسه وأمام صديقه..وأخذ الركاب يرددون :إنهم معدومو التربية وربما يكون لهم أصدقاء داخل الأتوبيس وقال أحدهم إنهم نزلوا جميعاً ونجا أحمد من غضبة شعبية كانت ستناله بلا شك وهو البرىء..وكانت هذه من آخر الزيارات لزميل يحمل له ذكريات طيبة بالرغم من وجود هذه الأسافي .. فهو صديق شهم ومضياف ويحمل أخلاق ابن البلد الكريم العملي الذى يقف بجانبك وقت الشدة ..ولكنه هذا التدليل الغافل وهذا الحي القديم الذى يحمل الدين تراثاً وأحجاراً ويبتعد عنه تربية وتطبيقاً.. فى أحد مرات الحنين قاد "منعم" "أحمد" إلى الجمالية وقابلا "عِز" أحد أركان الشِلّة القديمة.. قابلاه على قهوة قريبة من مدرسة عز الدين الفاطمي فى الشارع الذى يُعرف باسمه ..قابلاه وهو شبه مستيقظ أو شبه نائم ..لقد كان الحشيش لاعباً برأسه وهزَى بكلام عن الحشيش ..والحياة التى لا

يعرف منها إلا الملذّات ..وغادرا القهوة وهما حزينان على زميل قديم قد تاه في أروقة الحي الفاطمي..في مرة أخرى يقابلان زميلاً قديماً واسمه صلاح ..في شارع الشواربي بالقاهرة في وسط البلد ..ويرحب بهما كثيراً وقد صار تاجراً وحينما يسألانه عن تجارته يعرفان إنّها من المهربات من الكرستال وخلافه من لبنان وغيرها ..ولا يعرف أحمد ما هو مصير عز وصلاح ولكنه يعلم عن طريق منعم أن "كمال" يمتلك سيارة (وهو حلم حياته) وأنه يعمل عليها في مجال السياحة وهو عمل يناسبه تماماً.. جوّال حر ..حصان بري بلا قيد.. في أخر هذه المرات سأل أحمد "منعم" عن كمال ياسين.. وكان كمال خاطباً لفتاة قد عرّفها عليهما مرة من المرات في أحد الزيارات ..وكانت تسير بجانبهما في الطريق ولا يعرفانها.. وفجأة تحولت إليهما وقالت لهما تضحكان عَلَي وتُعكاسنني .. سوف أقول لكمال..وسارت مسرعة وتعجب أيما عجب من هذه الفتاة التي حاصرت نفسها بالملابس الضيقة من كل اتجاه ..وقابلا "كمال" وأخبراه بذلك ..فما زاد أن قال: هذه بنت كلب لا تهتمان بها..وكانت هذه هي الزيارة الأخيرة فقد انخرط منعم في كليته، الفنية العسكرية وانخرط أحمد في الهندسة ونسيا ما آل إليه الحي ولكنهما ما زالا يتذكران أيام الشقاوة..أيام "كاكا" .

لقد أحب أحمد المدرسة الإبراهيمية وعشقها وكان يتركها حزيناً حتى أنّه كان يلعب فيها كرة القدم بعد الدراسة حتى يطيل وقت

المُكث ..أحبها لأنه صادف ناظراً مجتهداً هو "توفيق الحديدى" الذى دعى إلى سياسة الباب المفتوح وكان ذلك يناسب ما ينشده أحمد إلى الحرية ..باب المدرسة مفتوح وعلى الطلاب أن يستمروا بين جدران المدرسة حباً لا قهراً..ولكن هذا النظام لا يناسب الأغلبية من الطلاب الذين ضاعوا فى طرق جاردن سيتي.. فتغير الناظر والنظام بعد ذلك..أحب أحمد المدرسة لأنه صادف صفوة أساتذه مصر فى التعليم والتربية والذين أسقطوا أرواحهم العالية والسامية على طلابهم الذين عندهم استعداد لعشق العلم..أستاذهم "الطحلاوي" يقول للطلاب سوف تكبرون وتصبحون عظماء وتطردون إسرائيل من فلسطين وكان يشجع "أحمد" على الكتابة من خلال موضوعات التعبير..البدايات الأولى لنمو أسلوب الكتابة ونمط التفكير فى المواضيع ..تشجيع لا ينساه من أزهري فاضل كان يتمسك بلباس الأزهر حتى فى جاردن سيتي.. ومدرس اللغة الالمانية "محمد عفيفي" الرجل المربى الفاضل الذى درَّس لهم لغة الألمان وحدثهم كثيراً عن الوطن والأمل وأستاذ الفيزياء "وجيه" الذى لقنهم درساً فى الوطنية والانتماء حينما ألقى طلبة غاضبون من إدارة المدرسة حِجارة على المدرسة.. وأخذ الحِصَّة يبكى كلاماً وحديثاً عن الانتماء الضائع فى هذه الأمَّة .. هذا إلى جانب تدريسه الرائع وشرحه الواضح.. والاستاذ سوس مدرس الكيمياء الذى كان يَعصُر ذكاء الطلاب فى ماده جديدة وصعبة وكان مثلاً أعلى لصديق وزميل عظيم هو

"كامل" الذى كان يعشق هذا العَصر ويلهو به حتى اشتهر بيننا بالثقافة والذكاء اللمّاح حتى أنه جذب "أحمد" إليه فى القراءة عن النسبية لأينشتاين ثم مباريات الشطرنج التى فشل أحمد أن يأخذ منه دوراً واحداً ..مازال أحمد يحتفظ بأسماء مدرسيه وكلهم عظماء وأسماء زملائه وبعض الصور الشخصية فى فناء المدرسة مع زملاء كانوا على وشك الدخول إلى كليات القمة فى مصر لقد كانت المدرسة الإبراهيمية معملاً للرجال وللعلماء وكانت مثالاً للانضباط الثقافى فى تربية النشء..جازاهم الله عن أحمد وجيله كل خير.

فى هذه البيئة اشتعل رأس أحمد وصدره بالثورة وعدم الرضا على التخلف والبلادة والفشل .. سعى لأن يكون ناجحاً وحافظ على تفوقه وسط زملائه المرعبين واحتفظ بمقعده فى فصل المتفوقين وزاد عليهم احتفاظه بعلاقات الصداقة القديمة مع زملاء الصبى مثل "منعم" والذى تتماثل ظروفه الاجتماعية مع أحمد وكان كل أصدقائه تقريباً أصدقاء لأحمد .. أصدقاء "شارع الجَميل" فى الفجّالة.

ولكن أحمد لم يستطع الاحتفاظ بحب أبيه وأمه .. لقد كان قاسياً لاذعاً متمرداً ولم يفهم أحداً داخل الأسرة ولم يحاول .. حتى أنّه عزل نفسه شيئاً فشيئاً حتى صار كالضيف إلى الحد الذى جعلهم يأخذون له حجرة أمام الشقة فى منزل مجاور ينقل إليها مكتبه وسريره وإبداعاته الواهمة مع أول خطواته فى كلية الهندسة جامعة القاهرة.. ولم تكن ثورة أحمد على الأسرة ونمط العلاقات داخلها فقط ولكن كانت ثورته

على النظام السياسى.. الحرب.. السلام ..القيود.. كيف نواجه إسرائيل؟ ..ونواجه العالم كله ليحترمنا وينحني أمام كرامتنا وعزّنا ولكن لماذا؟..ما هو الشيء الموجود فينا ويجعل العالم ينحني لكرامتنا وعزنا؟.. أهو العِلم؟..أين العلم والعلماء؟.. لقد نزلوا على القمر وأطلقوا الصواريخ وسفن الفضاء ونحن نائمون مهزومون.. والمجتمع لا يحترم العلم أو العلماء ...أهو مميزات إنسانية موجودة فينا وغير موجودة فى غيرنا؟.. أين الصراحة والصدق والانتماء؟ وأين العواطف الإنسانية النادرة التى تجعلنا متميزين عن الجميع؟ .. أين احترام الإنسان وقدراته في مجتمع يأكل الكبير فيه الصغير وتتفشى فيه الأنانية وحب الذات واللامسئولية؟.. قرأ أحمد أنَّ عِز العرب فى إسلامهم .. ولكن أين الإسلام ؟.. أين الدين عنده هو أولاً ثم فى أسرته ثم فى مجتمعه ثم فى دولته؟..وماذا يقدم الإسلام كنظام وكإدارة لدولة ومجتمع وأسرة وفرد حتى يصبح مستحقاً للتميُّز بين الأمم وحتى يدفعنا إلى العلم والتقدم والحضارة؟.

كان أحمد يبحث عن هويَّة..قرأ فى الصيف كثيراً..جذبته مكتبة بجانب المدرسة فى حى القصر العينى..صار يذهب إليها ويستعير الكتاب تلو الكتاب فى رحلات شبه يومية ليقترب من المدرسة الحبيبة أو طَيفها العذب .. وليستقي العلم والمعرفة والأدب .. وليحاول الإجابة على هذه الأسئلة التى أرّقته أياماً طويلة.. قرأ فى هذه المكتبة كتاباً اسمه "إعجاز القرآن" لفت نظره إلى الإعجاز البلاغى الأدبى

للقرآن مما يحسم قضية عدم بشرية القرآن..وكان هذا الكتاب هو من أوائل الكتب ذات الدلالة في اتجاه أحمد المستقبلي.. إنّ عز العرب والمسلمين هو الالتفاف حول القرآن .. لقد أثّر فيه تأثيراً شديداً لدرجة أنّه حاول تفسيره بنفسه في بدايات دخوله الجامعة.

والغريب أنّ هذا الاتجاه كان فكرياً فقط .. فلم يؤثّر في انتظامه للصلاة ولكنّه كان يصوم كالعائلة.. وكان يقرأ القرآن كقراءته للكتب الأخرى .وهذا أثّر على فهمه للقرآن .. فهناك قضايا يجب أن يكون فيها أحمد أكثر تدبراً وتمهلاً .. ويتغير معناها تماماً بتغير حركة من حركات الكلام .

هذا الفُرن الساخِن دخل امتحان الثانوية العامة بعد سجنٍ طويل ومذاكرة مستمرة وانحناء فوق الكتب على كل قطعة من قطع المنزل.. حفظ كتباً طويلة من الجِلدة للجلدة وفهم كتباً عميقة وأحاط بها واضطر لمذاكرة وحفظ آراء يكرهها .. معركة طويلة مع النفس انتهت بيوم الامتحان في اللغة العربية وبداية غير موفّقة وتأخُّر عن الامتحان.. ولكنه استعاد ثقته بنفسه مع الرياضيات والعلوم وغيرها..وبات الزمن كله "ثانوية عامة" وخرج من الامتحان لا يستطيع أن يعصُر ليمونة .. وهجر باب اللوق تماماً مما انعكس على علاقته بأبيه.. وغضب الوالد منه ولكن أحمد كان لا يرى إلا الثانوية العامة ولم يفهم أبوه ذلك ..لقد كان في الاحتياج الشديد إليه ولكن أحمد لا يذهب إلى المطعم مطلقاً ويعتزلهم في المنزل ولا يأكل معهم ولا

يحادث أباه.. فترة أضرمت مـن قلـق.. وأخـيراً أعلِنـت النتيجـة: تفـوق وانتصار .. سيبلغ أحمد حلمه ..كلية الهندسة جامعة القاهرة ..يا له مـن انتصار بناه على هنائه النفسي والروحي والأسري ..ياله من انتصـار .. وبعد معرفته بالنتيجة أخذ شارع القصر العيني هَرولة .. وطار من ميدان التحرير إلى ميدان باب اللوق ..كأنه على لقـاء معـه بعـد طـول غيـاب ..ورأى والده على الماكينة ..وسلّم عليه ثم قـال لوالـده لقـد نجحـت.. ونسـى الوالـد غضبـه الشـديد عليـه وتهلّلـت أسـاريره وسـقى البـارد للعمال والزبائن..وجمعت باب اللوق بين الوالد وولده بعد مِحنة طويلـة شائكة.

كانت هزيمة ٦٧ كارثة على مصر والعرب.. وعلى أحمد بسببٍ يناسب ابن الاثنى عشر عاماً وقتذاك .. لقد انهزم عبد الناصر.. وكان أحمد آنذاك فى مدرسة "الناصر" الابتدئية، إحدىالمدارس الجديدة التى بُنيت فى عهد عبد الناصر وكان أحمد يمشى مشواراً طويلاً إليها كل يوم من منزله فى باب البحر إلى قرب باب الشعرية..تعلم أحمد فى هذه المدرسة كما تعلم جيله كله حب عبد الناصر لا حب مصر ..كانت صور عبد الناصر تملأ تقريباً مُعظم أركان المدرسة، وكان عبد الناصر مناط حب وتقدير الجميع حينما يتحدثون عنه وعن ثورته المباركة التى يكفى أنها تسببت فى تعليم كل الأوساط الشعبية فى مصر..وعلى قدر فهم الصغير أحب عبد الناصر كما نشأ على ذلك ..إن عبد الناصر يبدو له كالملاك الساحر بوجهه الأسمر قليلاً وأسنانه البيضاء التى تبرز عند ضحكه وكلامه فى خطبه الكثيرة.

وزاد من تعلق هذا الجيل بعبد الناصر دخول التلفزيون إلى مصر فى أوائل الستينيات.. واستقر جهاز "باى" الانجليزي فى غرفة الاستقبال بمنزل باب البحر ليكون جهازَي السَمع والبَصَر عند الصغير الذي تعلق به أيّما تعلق..وصار محاولة فهم عمل هذا الجهاز الغريب تحديًّا عقلياً عظيماً لمعلومات أحمد الضئيلة ..وحاول أن يفسر

وجود هذه الصور المتحركة فى هذا الجهاز عدة تفسيرات ولكنها جميعاً كانت صُبيانية وغير صائبة.

ساهم هذا الجهاز فى تعريف هذا الجيل بعبد الناصر وازدياد محبتهم له وارتباطهم بأفكاره..يكفى أن ينساب الفكر ويتآلف مع سحر هذا الجهاز ليلصق فى ذاكرة الصغير..وكذلك التصقت التمثيليات الأولى والأفلام الأولى والأغانى المُصوَّرة الأولى وخاصة لعبد الوهاب وعبد الحليم..وكانت وطنيات عبد الوهاب تلهب الشعور الوطني فى مصر آنذاك .

وعندما كبر وذهب إلى باب اللوق سمع للمرة الأولى كلمات ضد عبد الناصر استهجنها بشدّة ..ثم سمع نقداً صريحاً لسياساته الاقتصادية من التجار فى باب اللوق.. وربما يكون الاحتكاك الأول كان فى رحلة عمل إلى الإسكندرية اصطحبه فيه الوالد مع تجار آخرين.. رحلة إلى المنشية حيث سوق الجملة وقضاء بعض الوقت فى شقة "باهر جمجوم" صاحب أحد محلات البقالة القريبة من ميدان باب اللوق..وبعد هذه الرحلة استمع إلى نقد صريح من والده عن عبد الناصر وسياساته الخاطئة وأنه قد ضرب البلد ..ربما كان يسمع من والده شيئاً مثل ذلك ولكنه لم يكن يعيه وهو صغير..إذ كان والده دائم التحدث عن العهد الماضى ..الملك والخواجات والانتعاش الاقتصادى الحر ورخص البضائع ورخص المعيشة.. ولكن النقد اللاذع قد ازداد عنفاً لدى الوالد بعد ذلك..وسبَّب ذلك مناقشات

حامية بين الأب والابن ..قال لـه الابـن ذات مـرة إن عبـد النـاصر هـو الذى علمكم الكرامة ..وقال له الوالـد لقـد أذلنـا بـين الأمـم ..وكـان الأستاذ مجدي توفيق جـارهم فـى كلـوت بـك يقـف إلى جـانب الوالـد أحياناً وإلى جانب أحمد أحياناً وأحياناً يكون لـه موقـف مسـتقل حسـب الموضوع ..وأدخلت هذه المناقشات المبكرة أحمـد إلى السياسـة..وجعلته شغوفاً بقراءة المواضيع السياسية وسماع الأخبار وتحليلها.

ثم جاءت الصاعقـة ..مـات عبـد النـاصر ..وخـرج أحمـد إلى بـاب اللـوق حينمـا علـم أن مظـاهرات صاخبـة قـد اشـتعلت فـى ميـدان التحرير..وسار فى مسيرة قادته إلى الاتحـاد الاشـتراكى على كورنيـش النيل حينذاك واسـتمع إلى خطبـة جعفـر النمـيرى ..وأخـذ يبكـى علـى الصوت والصورة الساهرة فى التليفزيـون وعلـى الصـور التـى مـلأت مدرسته الابتدائية وعلى الرجـل الـذى علّم المصريـين الكرامـة والـذى تحالفت القوى ضده لكسره وكسر الشعب المصري ولكنـه كـان واقفـاً كالسد العالى يمنع عن مصر الحقد والتخلف وخرجـت الجماهـير تبكـى كالنسـاء..وصار الأمـر صدمـة عصبيـة أثّـرت عليـه عـدة أيـام ..وفـى الإبراهيميـة اسـتمع إلى التـأبين مـن"مصطفـى شملـول " مـدرس المـواد الاجتماعية والتاريخ الذى قلبها مناحة وبكاء واستمر البكـاء والنحيـب والتدميـع أيامـاً ..حتـى إذا هـدأت العاصفـة ومسـك السـادات الحكم..بدأت الأقلام تكتب ضد عبد الناصر ..وقرأ أحمد مسـاجلة بـين توفيـق الحكيـم في (عـودة الوعـي) وبـين كـاتب آخـر في (الوعـي

المفقود)......ماذا؟ عبد الناصر يُنقد؟ يالهم من جبناء..وجاهر بعض تجار باب اللوق بكراهيتهم لعبد الناصر.."لقد رحل فى داهية، الله ما يرجعه ولا يرجع أيامه".. الجبناء صار لهم صوتاً بعده ..ولكن أخذ أحمد يقرأ ويحلل ما يُكتب وإذا به يهتز..لقد سجن عبد الناصر الآلاف وقتل الآلاف داخل السجون ..فأى حرية كان يتشدق بها ..وبدأ داخل أحمد صراع مخيف هز كل القيم بداخله..عبد الناصر لم يكن زعيماً مثالياً وكانت نظرته للحكم سادية وفاشية ولم يستطع أن يبنى هذا الجيش القوي الذى يدافع به عن عزة مصر وكرامتها كما زعم..لقد هزمه اليهود هزيمة مُنكرة..وتسببت فى جلب العار للشعب المصري بل و العربي..لقد صادر الفكر وصادر الحريات حتى صار الناس لا يسمعون إلا كلامه ولا يشاهدون إلا صورته ولا يفكرون إلا بتفكيره ..وانطلقت حملة شعواء على نظامه الفاسد وانتهت بما أسماه السادات "ثورة التصحيح" ..أى تصحيح؟! ..لقد انقلبت الموازين وانطلق الفكر..وتعرّى هذا الجيل ..صار يسير على استحياء..نحن جيل منهزم ضائع..وفى وسط هذه الأصوات سمع هذا الجيل نداء الصلاة ربما للمرة الأولى على وعى وتدبر. ..الله؟ ..أين الله ؟ لماذا لم نسمع هذا اللفظ الكريم فى خطب عبد الناصر؟ ..لقد كان شيوعياً..لا..بل كان ثورياً اشتراكياً ..لا..ولا..ولا.. ضاعت الحقيقة بين أقلام الكتاب..ياإلهى ..لماذا نغوص فى هذه المعلومات النسبية التى لا حقيقة فيها..إنهم كالنصابين الذين نصبوا عليه فى سليمان

باشا..يجيدون فن الكلام ويصيغـون الموقـف على هواهـم ويكذبـون .. سقطت الأصنام .

وكان لابد من الدين الـذى أسقط الأصنـام أن يـبرز مـن جديـد.. وسمع أحمد صوتاً لم يكن يسمعه من قبل ..من المساجد فيخطب الجمعـة ومن المقالات ومن الكتب عنـد الفرشـجية فى الحـى التجـاري العريـق ..الدين الإسلامى .. ما هذا الدين؟ .. هل تعرف عنه شيئاً.. كنا نسمع كلمة الرجعية والتخلف..ونهزء باللحية ولباس الأزهر الشريف..الأزهر الشريف؟.. أين هـو؟..ذهـب أحمـد إلى الأزهر..انبهـر بـه..يا إلهـى لماذا لانلتفت حول هذا الأزهر بعلمائه وتاريخه وصلابته التى قـاومت الطغـاة قروناً طويلة..صلابة يستمدها من أحجـاره العتيقـة الصلـدة التـى لـوت قرون الغزاة والمُلحدين..ارتبط أحمد بالأزهر فى هذه الفترة وصار يُصلي الجمعة به ويحرص على ذلك..ولكنه لم يكن ينتظم في الصلاة..ما زالـت بداخله رواسب الماضي..وبداخله شكوك كالجبل..مازالت الرؤيا شائكة والطريق مقطوع والهزيمة مازالت قابعـة علـى النفس..يومهـا كتـب فـى إحدى محاولاته الأولى : "مالى أذهب إلى النسبي وأُضيِّع وقتى فى تجارب البشر..أنا لست محطة تجارب للهواة..سأتمسك باليقين..حيث لا ينصب علـيَّ أحـد..ولا يضحـك علـيَّ سياسـي آخـر"..وكـان يقصـد بـاليقين العِلم..ويقصـد بـالعِلم لُبُّـه وهـو الرياضيـات..التجريد..المُطلق..ولذلك تمسـك بـأقرب شـيء يحبـه ولم يـرد أن يذهـب بعيـداً فيغـرق فـى محيـطٍ يجهلـه..ولكن كتـاب مصطفـى محمـود

أدت دوراً هاماً في حياته وفي خروجه من هذا الشك وهذا الخوف من المجهول..لقد قادته إلى الدين..زورق النجاة..وكذلك قادته كتب العقاد ..إن العقاد لم يكن ملحداً وكان مفكراً قوياً عظيماً..إن كتاباته الدينية تقدم لك الدين كمشروع للفكر المستقبلي..مشروع صالح للتنفيذ..إن ما حدث في القرون الماضية لم يكن أسطورة..بل يمكن أن يعود من جديد لهذا العصر..وتعود معه العزة والكرامة التي ضيعها عبد الناصر.. وأخذ يفكر في الدين..في الرسول..في القرآن..في الصحابة..وهداه الله إلى كتاب إعجاز القرآن..الذى جعله يقرأ القرآن بتدبر وتفهم مغايرين لمادة الحفظ التي تُنسى بعد التسميع..وكانت الأخلاق هي أول ما لفت نظره..إن هذا الدين يهدى للتي هي أقوم..حيث الصدق وعدم الكذب والشجاعة وعدم الجبن والخوف..والتمسك باليقين وترك المُحتمل..أن يقف الإنسان على أرض صلبة..لا أن يقف على ماء القناة التي ضاعت منا للأبد..أن يعيش كإنسان يحفظ للآخرين حقوقهم عليه..فلا يزني حتى لا يُزنى بأمه وأخته وزوجته وبناته..ولا يسرق حتى لا يُسرق ماله وممتلكاته..ولا يشرب الخمر حتى لا يعيش سكّيراً لا يدرى من أمره شيء تتحكم فيه نزواته وأهواؤه..إنسان قوي يدعو للفضيلة ويتمسك بها..ماذا يحدث لو صارت الفضيلة في نسيج المجتمع..أى تغيير سيحدث ؟!.

صارت هذه الأحاديث وأمثالها هي أحلام اليقظة وأحلام

النوم..حوار مستمر مع النفس لا يهدأ ولا يجفو..حتى انتهت الثانوية العامة بما حملت من دخان هذه الحوارات المستمرة مع النفس..وذاق طعم الانتصار والتفوق.وصار كأنه خرج من أزمته إلى طريق جديد يقوده إلى "اليقين" الذى يبحث عنه..وفى نهاية الصيف..اندلعت حرب اكتوبر..بل "حرب رمضان"..سمع الناس " الله أكبر" مُجلجلة واضحة مُغيِّرة للنفوس..تبدَّل وجه المجتمع كله وقد إتجه إلى "الله" الذى نسوه..ولكنه لم ينسهم ولن ينساهم..نصرهم وأكرمهم..وأزال آثار الهزيمة على النفوس..بدَّلَها كرامة وعزة..ها قد وصلنا إلى اليقين..هذا هو اليقين..ومع هذا اليقين وضع أحمد خطواته الأولى فى كلية الهندسة جامعة القاهرة..ليبتدئ عهداً جديداً..فى طريقه لليقين.

لايمكن أن يكون الإنسان شيئاً واحداً طوال الوقت.. تستغرقه العواطف حتى نظن أنّه عاطفي ثم نجد له مواقف ليست بالقليلة وكأنّه قد خُلق بدون قلب.. مادّى..روحه المادة.. هكذا أحمد ..تغلُب عليه العواطف حتى البكاء أحياناً إذا ما رأى أطفالاً محرومين أوعمالاً مُرهَقين بدون عائد، أو بائع سرِّيح على باب الله لا يجد زبائن ويرى أحمد فى نظراته الركود والخوف من المستقبل..مواقف كثيرة كانت تُدمِع عين أحمد ..وأحياناً ينقلب إلى جماد بلا قلب ..يُحاسب عمّاله محاسبة الملكين ويقسو عليهم فى الحديث والمعاملة ..كان كذلك حتى على نفسه فأحياناً يأخذ الأمور بهدوء يحسده عليه الناس..وأحياناً يكون قطعة من الغضب..أحياناً تتنازعه الفوضى والمثالية..ولم يظهر ذلك مثلما ظهر فى تعامله مع الجنس الآخر.

كان عاطفياً جداً فى مراحله الأولى ..تلك العاطفة التى جعلته يطوف بمنزل زميلته فى الابتدائية "مُنى"..وكان منزلها في "غمرة" التى تبعد عدة كيلومترات عن كلوت بك..ولكنّه كان يذهب إلى هناك ولا يعرف مكان منزلها بالضبط..ويظل يدور ويدور علّه يراها..فعل ذلك وهو ابن الحادية عشرة..ولا يعرف لماذا يفعل ذلك ؟!..إنّه حنين غامض لايدركه ..ولا يمكن أن نُسميه حباً أو ولعاً والأغلب أن يكون محاكاة لما رآه فى التليفزيون فى بداية الستينيات حيث الأفلام المصرية

لا تخلو من هذه المواقف من الكِبار ..وهو يعامل نفسه معاملة الكبار..وكان الآخرون يعاملونه كذلك أحياناً مثل "محمود" الذى ضمَّه إلى فريق الكبار فى كرة القدم وهو فى "باب البحر" ومازال ابن التاسعة أو العاشرة وقد لعب معهم مباراة قوية حاول أن يثبت نفسه فيها وأنّه جدير بهذا الاختيار الذي كان يُحسد عليه من أقرانه المتفرجين.

كذلك كان أساتذته فى الابتدائية يعاملونه هذه المعاملة ويستأمنونه على الفصل وعمل اللوحات ومجلات الحائط والكتابة فيها ..إلا أنّه يتذكر أن الأستاذ "سعيد" ضَربه بشدة لأنّه أفسد غلاف إحدى مجلات الحائط وهي في صورتها النهائية كما أنّه يتذكر أن الأستاذ "محمد" مدرس الرياضيات ضربه أيضاً لأنّه ذات مرة خان الأمانة وهرَّج مع الأشقياء الصغار على ورقٍ عابث مكتوب عليه ألفاظ ليست بريئة مما يتعارض مع كونه مُستأمن لكتابة اسم من يتكلم ويُهرج فى الفصل..لابد أنّه تعلّم من ذلك أنّه غير عادي وعليه أن يتعامل مع نفسه على هذا الأساس..فهو لا يجب أن يلهو ويلعب مثل الأطفال وهناك وقت للعب ليس في محل الجد والعمل والاجتهاد وتحمل المسئولية ..وأنّه يجب أن يكون حريصاً على الأشياء ولا يُتلفها..أشياء نمت داخله مثلما نمت الغيرة داخله حينما تناقل الأولاد الصغار إشاعة بأن زميله "حنفى" قَبّل خِلسةً زميلته التي يهيم بها ..وقاطع زميل الطريق والفصل أياماً واكتفى بالعودة مع "محسن حجازي" هذا الزميل

الذى كان يُنافسه على رئاسة الفصل حتى علم أنّها إشاعة..أحاسيس تنمو داخله وهو الطفل الصغير الذى لايفهمها ولا تفهمه..وتمى بها فضوله نحو الجنس الآخر مع الزمن.

ومما لا شك فيه بأن منطقة باب اللوق لعبت دوراً فى حياته فى هذا الشأن حيث الموظفات والعاملات يملأن المكان يرحن ويجئن فاتنات لافتات للنظر..ولكن المعاملة وهو جالس على الدُرج أو الماكينة يجب أن تكون مؤدبة وراقية..فهذا أكل عيش كما تعلم من الوالد ولكن الأمر لايسلم من التقاء النظرات وخروج البسمات..ليس إلا..فهذا أكثر ما يستطيعه، ولكن لم يُقبل على شيء ففى لحظة الإقدام تنتابه مثالية أخلاقية تعصمه من الانزلاق لشيء ما..ثم إنّه كثيراً ما فكّر فى إسقاط مجلسه هذا على فكر من تراه..فهو مجرد عامل على الماكينة..حتى وإن شخط فى العمال وفهمت الزبونة أنّه من الإدارة.. فهو ابن صاحب مطعم فول..ليس إلا.. وكان هذا يجعله رسمياً فلا داعي للإقدام على شيء مجهول..وأثّر هذا الفكر والظن على إنشاء مثل هذه العلاقات النسائية وقتلها من البداية ولكنه لم يؤثّر على ثقته بنفسه بشكل عام..ولكنَّ المُراهقَة شيء آخر..حيث نوازع النفس فائرة قوية يغلب عليها النظرة المادية للأمور ويخمُد فيها صوت العاطفة الراقية المسئولة..ولكنَّ الله سلّم رغم ما يحتويه هذا الحى من تناقضات..فمثلما فيه الشركات والعمال والسوق وفيه خيرة أطباء مصر المشهورين ..فيه أيضاً الشقق المفروشة..وكان نصيب

العِمارة دورَين كاملين يصعد إليها عشرات من الفاتنات العاهرات..ولا بد أن علي السيد لعب دوراً في أن تكـون نظـرة أحمـد مثاليـة فـي هـذا الأمر..أنّه يتذكر تعليقاته المُهينة للتى يراها على هذا النحو ويعلـم أنّهـا تتردد على الشقق من البـواب ومسـاعده.. بـل إنّـه كـان يتعمـد إسـاءة المُعاملة إذا ما جاءت وطلبت ساندوتشات حتى إنّه فى مـرة امتنـع عـن عمل الساندوتشات لإحداهن..لقد أسقط هذه النظرة على الصغـير ثـم على المُراهق..فكان يعاملهن بتحفظ شديد.

يتذكر أحمد واحدة منهن كـانت تقيـم فـى العمـارة..هذه السـاقطة كادت تتسبَّب فى خراب بيت أحـد معلمـي السـوق..لقد كـان المعلـم يصعد إليها أو اُتهم بذلك..ولكن المؤكد أنّ ابنه صعـد إليهـا مـراراً..ولم يتركه المعلم يفعل ذلك مرةً أخرى عندما تيقّن من ذلك..وبالكـاد قطـع هذه العلاقة الآثمة..ورغم ذلـك تحركـت هـذه العـاهرة بحريـة فـى بـاب اللوق..وكثـيراً مـا جـاءت المطعـم تـأخذ الفطـور وتريـد التحـدث فـي التليفون..وكـان عـم الشـيخ لايمنعهـا ولكـن أحمـد فعل..ومنـع عنهـا التليفون..وكذلك منع عنها علي السـيد الساندوتشـات رغـم اعـتراض عم الشيخ..وكانت قمة الانفعـالات ضدهـا عندمـا خـرج علـي السـيد نحوها يريد ضربها وأمسكه العمـال والناس..بعدهـا قطعـت رِجلهـا مـن المطعم..ولكنها كانت دائماً تمشـى بجـانب المطعـم وتَصفُر لعلـي السـيد وأحمد وكثيراً مـا كـانت تسـب وتلعن..وظلـت كذلـك حتـى انقطعـت رؤيتها..إفراز غير سوي لمجتمع يموج بالتيـارات ولا يعـالج هـذه الأمـور

بمثالية.

دخـل أحمـد الجامعـة..ولا يحمـل إلا نظـرة العقـاد للمرأة..الامتـلاك الكامل والاستحواذ..أو هكذا فهم من رواية "سارّة"..دخل كليته وهـو غير معتاد على الاختلاط مع البنات ولم يتحادث معهن..ولذلـك عندمـا انخرط فى الكلية جذبته زميلَة..لم يحادثها حديثاً خاصاً..ولم يُظهر لها شيئاً من مشاعره، ولكنه أغلق أحاسيسه عليه وظل يُشعِر ويُشـعر حتـى مـلأ أوراقاً..وكان يُحيـل التحيـة إلى حديـث والمعاملـة اليسـيرة إلى تجـاوب، والجُمَل العادية إلى لقاء..هكذا على الورق..وضيعـت هـذه الأحاسـيس جزءاً كبيراً من وقته وجعلته يقرأ فى فلسفة هذه الأمور حتـى انقطعـت بعد العام الأول فى الجامعة وقد حافظ على امتيازه بالكاد.

شاركه فى هذه الفترة زميل نادر:محمد إيهاب إبراهيم..شـاركه فـى كل شيء تقريباً..بحثه عن الحرية وابتعاده عن أسرته فى بـولاق وهروبـه إلى منزل خالته والتي أطلقا عليهـا "الفيلـلا"..وكثـيراً مـا جمعتهمـا هـذه الفيللا فى بولاق..ذاكرا فيها وتحدثا فيها عن مشاعرهما..واجتمعا فيها مع زملاء يبحثون أيضاً عن الحرية وتحقيق الذات..في يوم من الأيام أعد إيهاب حصاناً من الحلاوة ليهديه إلى الزميلة فى المَولد النبوى..وفوجـيء أحمد بذلك وفي حركة عصبية أوقع الحصان فانكسر منه جزء..وواجهـه إيهـاب ..لماذا؟..وقـال لـه أحمـد لماذا أنت أيضـاً؟..وكـانت الإجابـة واضحـة..ربما نسـتطيع أن نعمـم هـذه

الإجابة..كانت الدُفعة كلها تُقسَّم إلى شِلل..مجموعة من الأولاد تلتف على بنت أو اثنتين أوثلاث..ويجزم أحمد واثقاً أن كل الأولاد منفردين يقعون في هيام إحدى البنات أوربما كلهن..هذا الاختلاط أطاش بصواب الشباب والبنات في هذه الدفعة وربما كل دفعة..وجعلت أوهام الهيام والوجد تنعكس على كل التصرفات..صنف آخر من الزملاء كان يحسبها حساباً مادياً..ولا يعترف بهذا الهيام والوجد وكان يحاول إقامة علاقات وكان هؤلاء أكثر جُرأة ووقاحة ويستغلون براءة بعض البنات..تحول كل هذا إلى أقاصيص ملأت جدران الفيلا وأحمد وزميله يتعشُّون على كباب عم حنفي..وأقام أحمد في حجرته المُنفصلة عن البيت معرضاً للصور سَمَّى إحداها "شهوة" وأخرى "إمرأة" وأخرى "تناسل" وهذه اللوحة الأخيرة كان تركيبها فريداً وجريئاً جداً..فهي سلسلة من الانفرادت الداخلية إلى مالانهاية..لقدعكس هذا مع الأشعار هذا التناقض في شخصيته..هذه الحيرة و الشك.. واستمرهذا التناقض حتى عندما استبدل إيهاب بزملاء آخرين..فلهم نفس التركيبة الشللية السابقة..ولكنّه لم يهم بأحد لأنّه كان له هيامه الخاص..كتب مرة قصَّة شبَّه نفسه فيها بالحامل التي تريد إجهاض حملها..وكتب هذه الانطباعات بوجد سقيم كأنّه البكاء..تناولتها هذه الشلة التي كانت تحب الأدب والشعر وينتشر بينها أطروحات متناقضة بين الدين والعَلَمانية..شخصيات تبحث عن الحب والذات..والغريب أن هذه الشلة انتجت زواجين ناجحين فيما

بعد!..وكان هذا مع انفرادات أخرى تمثل الحالات الشاذة..وكان أخطر هذه القصص هى الانفراد تحت عباءة الدين..انفراد تسبقه زوجتك نفسي وبعده كارثة.

وما إن انتهى من زميلة إعدادى هندسة حتى شغل مشاعره بأخرى..وكتب شعراً وقصصاً كالمعتاد..ولكن هذه المرة حاول أن يكون أكثر جُرأة فتعدى الأمر التفكير فى الأحاسيس والمشاعر إلى كونها رفيقة العُمر..ولكنّه أخفق في أن يقول شيئاً ذا قيمة..وكاد هذا الأمر أن يضيعه إذ فكر ذات مرة فى الانتحار..وعرف السهر للمرة الأولى فى حياته وصارعصبياً ناقماً على الحياة التى لا تعطيه ما يريد..ذات مرة كانت تتلقى تدريباً فى باب اللوق فى شركة النصر للتليفزيون..ووجدته فى المطعم على الماكينة..رحَّب بها ترحيباً شديداً وعزمها على بارد ولم يتبادلا إلا قليلاً من الكلمات وتركته وذهبت ولكنه لم يتركها..قويت الفكرة فى رأسه وأراد التقرب أكثر حتى ولو بالخِطبة..ولكن الأسرة غير مستعدة لأن تتورط معه فى موضوع غير كفء..فهو مازال طالباً فى الكلية.. ولم يتعد الأمر إلا إشارات عن هذا الموضوع..ثم ازداد يأسه فى نيل ما يريد..وأثّر هذا عليه تأثيراً شديداً فى البكالوريوس ولذلك كان الرابع عشر على الدُفعة وفقد امتيازه إلى جيد جداً ولكنّه حافظ على مرتبة الشرف وتعيَّن معيداً بقسم الرياضيات الهندسية..لقد أضرَّ بأحمد هذا الاختلاط..وقطعاً أضرَّ بكثيرين من أمثاله فى هذه الفترة من العُمر

التى تتشوق إلى تحقيق الذات والاستقرار على شريك العُمر..ولذلك كانت هناك قصص كثيرة..كلها تقريباً انتهى إلى فشل..لقد رأى أحمد وزملاؤه صوراً صارخة لهذا الضياع فى كليات أخرى نظريّة حيث كانوا يهاجرون إليها ليروا بأنفسهم كيف هبط مستوى الجامعة إلى هذا الحد من الإسفاف..وما زالت أركان الجامعة وزواياها تمتلئ بالعاشقين الحالمين واليائسين..هم فلذات أكباد أسر مصرية مطحونة..يريدون أن يأخذوا حقهم من الحياة ولو عُنوة.

"الجامعة"..المرحلة الذهبية فى حياة الطلاب..أمواج من العلم والفكر..أو هكذا يجب أن تكون.فيها تتبدل الأفكار تُحارب وتُجارَى وتُنمَّى..فيها صراع مع النفس قبل النفوس الأخرى التى هى جميعاً فى مراحل انتقالية من حياة أفرادها..تتغير فيها معتقدات الأفراد تغيراً يكاد يكون جذرياً فى معظم الأحيان..هذه الجامعة يمكن أن تبنى أفراد الأمة كما يمكنها بالتجاهل أن تقتلهم جميعاً حيث لا فائدة من الموتى..فيها الفضيلة والرذيلة..والحب والوهم..السياسة والذاتية اللامبالية..اليقين والشك..تترعرع فيها كل الحدود الفاصلة بين الأفكار المتناقضة التى تترقب مكانها..تُمحَّص وتُقرأ وفى النهاية تأخذ طريقها إما إيجابياً أو سلبياً.. قوة طلابية لا يُستهان بها قاومت مُستعمِراً وقاومت طاغية ولم يضحك عليها خبيث ماكر..غيرت وجه الدولة وستغير دائماً رغم أوهام السيطرة عليها من هذا أو ذاك.

الحياة فى "كلية الهندسة" نسيج جاد ملتزم فى معظمه..إن أحمد يلتزم الفكر الإنساني المضطرب بين الإيمان والشك وجاء لتحصيل العلم من كلية عملية أفكارها عالية فائقة التركيب ..تُنمِّي في أفرادها الكفاح والنبوغ ،في أساتذتها قبل طلاَّبها وطالباتها..حتى هؤلاء الطلاَّب الذين جذبهم الوجد والهوى وأحنوا فكرهم أمام الوهم..هؤلاء كانوا يتدربون على فن الحياة حيث الفشل والنجاح

والصعود من العثرات و مقاومة الفشل.

كان العام الثالث في الكلية بالنسبة لأحمد عاماً ضائعاً..كان مذبذباً بين اليقين والشك ولم يضع قدمه في ملعبٍ واحد يلتزم بقواعده..فإن ناقش الشك ناقشه باليقين وإن ناقش اليقين ناقشه بالشك..قرأ في هذا العام كثيراً..حاول أن يهرب إلى الصداقة..الأصدقاء القدامى في شارع الجميل حيث سهرات الأجازات الأسبوعية بمرحها وخفة ظلّها وبراءتها مع منعم و محمود علي حسن طالب هندسة عين شمس والمكني بمحمود الخطيب ومع أحمد هشام طالب كلية زراعة عين شمس..ضائع آخر في بحار الوهم..بل الجميع.

تعرّف علىعلاء عبد العظيم المرسي ابن السفير الراحل والذي يسكن في باب اللوق والذي زاره كثيراً في المطعم أيام الجُمع..كم كان راقياً مُهذباً..كثيراً ما ذهب أحمد إلى منزله في شارع الشيخ ريحان وسهر مع شلته في لعب الورق..لعب برىء للتسلية وتضييع الوقت..احتار علاء في أحمد ولم يفهمه..مرة يكون فرداً في الشلة ومرة يجده مهاجراً..ولم يفهم السبب إلا متأخراً فقوى علاقته بالمسكين المتردد الذي تتجاذبه الأهواء..كما تعرف أحمد على محمد إيهاب كمال..ابن ناس راقٍ ومهذب من العجوزة..وأحد الهائمين..جميعاً كانوا يمثلون الفكر الخفيف الراقي الذي يتعامل مع الحياة برقة متناهية..وهم يؤدُّون واجباتهم على الرغم مما في وجدهم من سقم.

وتعرّف أيضاً على شلّة جديدة يصاحبها صديقه القديم محمد

إيهاب إبراهيم صاحب الفيللا في بولاق ومرهم الجراح الأولى في إعدادي هندسة..شلة ليست باللاهية..ولكنها تحب الأدب والفكر الإنساني..تجتمع على قراءة قصيدة أو قصة أو معرفة فكر بشري تناقشه وتتقاسم عليه حظوظها من التأييد والرفض..وكانت لاتخلو من الهيام والعشق والصراحة في فهم العلاقات بين الأفراد..لقد وجد نفسه غارقاً في مشاكل الآخرين وهو نفسه مشكلة لم يناقشها أحد..كم اجتمعت الشلة عند عصام محمود أو عصام سليمان في الدقي أو عند فوزي سعد الدين قاسم قرب ميدان الجيزة والذي كان أكثرهم قراءةً واطلاعاً..وكان مجادلاً من الطراز الأول ولكم تجادل معه أحمد في كل مسارات الفكر تقريباً..وهكذا كان الجميع..جمعتهم أحد كازينوهات القاهرة المطلة على النيل مع العجماوي أحد الأصدقاء وكان يتحدث عن انطباعاته عن رحلة "الحج"..وقال :لم أشعر بشيء..إن الحج مجرد طقوس..ورغم أن أحمد لايعرف شيئاً عن فقه الحج فإنه غضب لمجرد سماع هذا الكلام..وتركهم فترة من الزمن حتى انتهوا من هذا الحديث..موقف فطري أداه دون معرفة مسبقة بفقهٍ تعلمه فيما بعد..ثم إنه هو نفسه كان حائراً في هذه الفترة من حياته كعصفورٍ لم يهمد على غصنٍ واحد.

في بيتي عصام سليمان و فوزي كانت المناقشات على أشدها في الدين والعلم والسياسة والعلمانية والشيوعية..ثم يأتي مشروب خفيف من الأدب والوجد والعشق تخفيفاً للمواقف المتباينة وتثبيتاً

لنقطة الإلتقاء بينهم جميعاً..أما في بيت عصام محمود فكان حديثهما عن الوجد السقيم والحيرة بين الهجر والحياة على الهامش..لقد اتخذ أحمد قراراً بالهجر ولكن عصام تذبذب..وكم أتعب ذلك كليهما.

جمعتهم كرة القدم كثيراً..وجمعهم عصام سليمان في شقة بالإسماعيلية على شاطئ القنال الساحر وقضوا وقتاً طيباً..ثم جمعتهم رحلة في السنة النهائية إلى القناطر الخيرية..ورفعوا فيها شعار "ما بُدِئ في القناطر ينتهي في القناطر"..فقد بدأت كل هذه الحكاوي في القناطر الخيرية في السنة الإعدادية..وانتهت الرحلة إلى لاشيء..يا لضياع العُمُر في التمزق والحزن والوجد في غير طائل.

لم تكن علاقة أحمد مع هذه الشلة على غير فائدة..فقد قرأ كثيراً واطلع على الفكر الآخر وجرب أن يناقش ويحاور..وبنى فيه هذا ركناً مهماً لشخصيته لم ينهدم إلى الآن:وهو حب النقاش والبحث عن الحقيقة وعدم أخذ الأمور بعلاتها الضعيفة كمحفوظات أو كأنها الأوثان يعبدها الشخص دون فهم أو تعقل..يجب أن تكون الحقيقة مُحكمة..دامغة..والوصول إليها يتطلب مجهوداً فريداً وزمناً طويلاً..عليه أن يبذله..والآخرون أيضاً.

هذه الشلة أصبحت الآن من أنجح المهندسين..وتزوج ثلاثة أزواج منهم..ويعرف أحمد أن اثنين على الأقل من هذه الزيجات قائمة على الالتزام الشديد بالدين..وكأنهم كانوا جميعاً في رحلة إلى اليقين..تُرى هل كانت فترة الشك هذه ضرورية؟.

"جمال ممدوح"..واحد من أصدقاء الابراهيمية الذين زاملوا أحمد في كلية الهندسة وكذلك كان كامل وحسن البطوطى وآخرون قليلون إذ أن معظمهم غزا كلية الطب طالباً ومعيداً ودكتوراً..لمح أحمد تغيُراً على سلوك جمال ممدوح حينما غادر شِلة الابراهيمية وخالفهم..هذا الزميل الذى كان يأخذ أحاديث صحفية عن الشخصية موضع الدرس ويحمل عنها معلومات مثل عدد أيام المذاكرة فى الأسبوع وعدد الساعات فى اليوم والقراءات الخارجية وسرعة حل الواجبات اليومية..ثم ينقل هذه الأحاديث إلى الآخرين ناشراً جواً من التنافس الشديد بين الزملاء..ليلتهب الصراع على من يكون الأول والثانى والثالث وهكذا..هو نفسه كان مجتهداً ولكنه كان من العشرة الأوائل وكذلك كان أحمد.

بحث أحمد فى الابراهيمية عن الصداقة وليس الزمالة العابرة..وكان غريباً أن يجد زميله مصطفى حسين عبد الله يبحث بنفس الطريقة فهو ثانى مجموع فى المدرسة عند الالتحاق وليس من مدرسة على عبد اللطيف التى أخرجت نخبة الطلاب فى فصل المتفوقين بالإبراهيمية..ولذلك بحث هو الآخر عن الصداقة..وصادق أحمد العام الأول بأكمله وكان هو الوحيد الذى يقابله أحمد يوم الخميس ليذهبا إلى السينما أو يتمشيا فى البلد ثم لحق بهما أحمد

حجازي وهو زميل آخر له نفس الظروف وكثيراً ما اجتمع الثلاثة على الفسحة البريئة.. يوماً ما كان لابد أن تجتمع معهم شِلة الابراهيمية للذهاب إلى فيلم مشهور..وكانت المشكلة أين يجتمعون؟.. فواحد مثل "شريف حتحوت" كان لا يعرف أين ميدان سليمان باشا! وهو الذى يسكن في شارع القصر العيني..وهو معذور في ذلك..أنه لم يغادر هذا الشارع من الابتدائية إلى أن دخل كلية طب القصر العينى التى لا تبعد عن منزله عشرات الأمتار.

فى الكلية، اقترب أحمد أكثر من جمال ممدوح..وقد رأى عليه علامات نضوج وهدوء فى شخصيته..وفى أحد أيام الصيف فى باب اللوق قابله أحمد على غير ميعاد..ووجده حالق الرأس تماماً ويلبس طاقية بيضاء مشبكة وهو غريب الشكل فيها على غير ما عهده من الأناقة والنظام..وتعجب أحمد..ما هذا؟ ..ولكن العجب زال عندما أخبره جمال ممدوح أنه كان فى عُمرة ..عُمرة؟ وما العُمرة؟ ..إنها زيارة الحرم المكي فى مكة ولا بأس من زيارة الحرم المدني فى المدينة..ولكن أحمد يعلم أن الحج ركن من أركان الإسلام أمّا العُمرة فلم يقرأ عنها اطلاقاً..ووجد فى صاحبه شفافية وكلام جديد على اللسان..كلام رطب مملوء بالإيمان مثل ندى الصباح النقى الذى يملأ النفوس يقيناً وثقة..وفى كلمات بسيطة ذكّر جمال "أحمد" بخالقه وذكّره بالصلاة وحُسن اتّباع الشريعة الإسلامية..كلام أثّر فى أحمد وآثار عنده ذكريات العودة إلى الله التى هاجمته فى المرحلة الثانوية

وفى أوائل دخول الجامعة..ولكن الحياة والصداقات الجديدة والرحلات المختلطة والحُب والهيام والشعر وبعض المذاكرة والاطلاع قد أبعدته عن ذلك..على الرغم من أنّ صراعاً شديداً بين قوى طلابية غامضة كان يجري أمام عينيه وهو لايفهم ما يحدث..كانت تجري أحياناً مظاهرات داخل الكلية واعتصامات فى مُدرَّج "الصاوي".. وخُطباء وخُطب لا يعي منها الكثير..لقد كان فى هذه الرحلة ذاتياً مُقفلاً على نفسه ومشاعره وأشعاره وقصص الحب الوهمية التى أغمت عيونه عن الرؤية وأقفلت عقله عن التفكير إلا فى الرياضيات وتطبيقاتها فى العلوم الهندسية التى كان يهرب إليها كلما زاد عليه الوجد وكاد أن يظلّله اليأس.

واقترب من مساحة التفوق التى هجرها ..ومع الاقتراب هجر،من جانب واحد، هذه الزميلة التى تسببت ،من وجهة نظره، فىهذه المأساة..وتحسن حاله كثيراً فى العام الرابع فى الكلية وبرز من جديد وعمل بجدية واطّلع على كتب خارجية ولم يترك صلاة..كانت وقفة حازمة مع النفس..وأظنُّه كان فى النهاية من أوائل الأوائل..وفجأة سمع عن مرض زميله وصديقه جمال ممدوح بعد أن افتقده فترة من الزمن..وجمع هذا المرض بينه وبين كامل ورياض ليذهبوا إلى زيارة له فى بيته في المعادي..وقابلهم الشاب بابتسامة جميلة وقد ارتسم على وجهه نور عظيم..لا ينساه أحمد أبداً رغم أن مرضه كان شديداً للغاية وخبيثاً..وفجأة سعل بشدة وتبدّل حاله وانقطع القرآن من

فمه..ودخل والده يودع الزملاء ويخرجون ويتركونه هكذا..كم أثّر هذا الموقف فى ثلاثتهم معاً..وجمعهم فيما بعد على خيرٍ كثير..وبعد أيام قليلة كُتب نبأ وفاة هذا الشاب الصالح على السبورة..وبكى أحمد كثيراً..وهو الشخصية الجامدة التى طردت العواطف من القلب..انتحب بشدة ليمنعه هذا الانتحاب عن المحاضرات وعن الدرس أياماً كاملة..ولكن هذا الزميل رحل عن الدنيا وترك له رسالة دون أن يتكلم معه كثيراً..وما زال أحمد يذكره وتدمع عيناه حينما يتذكر قوة المرض عليه..ولكن هذه القسوة الظاهرة كانت تحمل رحمةً بالآخرين..رحمة بدلتهم وبدّلت طريقهم فى الحياة.

جمعت وفاة جمال ممدوح بين الثلاثة؛ أحمد وكامل ورياض..وصارت صداقة ثلاثية كما كانت ثنائيات من قبل..والحديث يدور عن دور الدين في بناء المجتمع وما موقفنا من هذا الدور..أين نحن ومايجب أن نكون وكيف؟..أحاديث زادت القلق عند أحمد منذ أن سمعها وصارت نداءً خفياً داخله أخرجت كل الأصوات الدفينة في أعماقه منذ فترة الدراسة الثانوية..تلك الأصوات التي دفنها الوهم.

رغم الاضطراب الشديد في مشاعره في السنة الأخيرة بكلية الهندسة،نجح في الحفاظ على شيء ما ولكنه تأخر كثيرا..إلى الجيد جداً..ولكنه حافظ على مرتبة الشرف التي أهلته لأن يرشح معيداً بقسم الرياضيات الهندسية لا قسم الهندسة الكهربية والالكترونيات الذي تخرج منه..ولكنه مع ذلك سُرَّ أيَّما سرور..فها هو يرتمي في أحضان معشوقته الرياضيات.

عقب التخرج انشغل كثيراً بالإشراف على بناء فيللا البلد لوالده..لقد رسم للمقاول تصميماً معقولاً وأشرف على تنفيذه..بل إنه رسم التصميم في لوحة شاعرية..كانت له حلماً بل ملجأً أعطاه الثقة في نفسه..بعد أن تخلف كثيراً عن المواقع الأولى ربما للمرة الأولى في حياته..ولكن حياته صارت قلقة ..فكيف يكون المستقبل؟.

تقابل مع كامل و رياض مرات عديدة ..في المعادي وفي منزل كامل القريب من باب اللوق..في أحد المرات قبل التخرج وفي صلاة المغرب وقف وراءه أحد المصلين وجعله إماماً..وأمَّه أحمد بدون صوت وكأنّها صلاة سرِّية..وعرف بعدها أنه أخطأ وأن عليه الجهر بالقراءة في صلوات المغرب و العشاء والفجر..إنه لم يقرأ عن ذلك..بعد تخرجه انكب على كتاب الفقه على المذاهب الأربعة..قرأه كله وعلِم كم كان جاهلاً بدينه..وبعد مناقشات مع زميليه خرجت فكرة رائعة:لماذا لايكون همُّنا الآن التثقف دينياً؟..و راجت الفكرة مع آخرين من الزملاء..وضمَّت باب اللوق اللقاء الأول في أحد مساجدها بين المغرب و العشاء..وكانت دروس التفسير والتجويد والحديث والفقه التي شارك فيها الجميع مقبلين على الفكرة بإخلاصٍ شديد..وازدادت الحلقة اتساعاً وربطت بين الزملاء في أخوة رائعة منزهة عن الأغراض الدنيوية..إنه اجتماع في سبيل الله ومشاعر واحدة تربطك بالإسلام وعلمائه وأرضه وعلمه الضائع وضرورته المغفول عنها..بث فيهم هذه الجلسات الغيرة على دين الله وغيرت نظرتهم للحياة..بل بدلتها..كانت فترة ذهبية للجميع.

صار المصحف مصاحباً لأحمد ومعه كتاب الفقه وهو أروع ما أنتجه المسلمون مؤسساً على مرجعيتهم للكتاب والسنة كمصدرٍ أصلي ثم القياس و المصالح المُرسلة وغيرها كمصادر تابعة..وحفظت هذه الجلسة المباركة في باب اللوق أحمد من شرورٍ كثيرة وللمت

شروخ صدر أحمد المضطرب تجاه العائلة والمجتمع والدولة ونفسه قبل كل شيء..جعلته قلباً نابضاً من جديد..تحمّس للحق الذي تعلّمه وطبّقه عملياً..انتظم في صلاة الجماعة وصلاة الجمعة في الأزهر الشريف..ودعا والده وأسرته إلى ذلك..وكأنّما هو الأرض الجافة "الشراقي" نزلت عليها الماء فدبّت فيها الروح من جديد..وتبخّر الوهم القديم وصار ذكريات موجودة في العقل بلا إرادة كالأظافر والشعر نهذبها حين تنمو أكثر من اللازم..صار إنساناً أكثر جدّيّة وانفتح أمامه عالم بأكمله لم يكن يدري عنه شيئاً..عالم كُلُّه خير.

كانت الجلسة تبدأ بالقرآن والتجويد الذي يؤكد المعاني ويطلق منها خواطر والتزام وعهد..ويكشف ما في القرآن من حلاوة وطلاوة أدبية ولغوية وعقلية ومنطقية..وكم كان كامل رائعاً وموفقاً من الله..وأخرج التفسير جيل الصحابة حياً بينهم..كيف كانوا يضحون ويعملون ويهاجرون في سبيل الله..ثم كيف حاربوا المشركين والمنافقين والكفار..هذه الملحمة الفريدة الخالدة في تاريخ المسلمين والمنبع الدائم لإلهامهم وإيقاظهم من الثُبات والنوم الطويل..إن تفسير سورة الفاتحة فقط أخذ من كامل أسابيع طويلة..ولكم اجتهد فيها وأخلص..بل أخلص للمصحف بأكمله حفظاً ودرساً حتى حفظه كاملاً..ثم ربما يتسع وقت الجلسة لبعض مواضيع أخرى مثل السيرة أو الفقه..ويذكر أحمد درساً في "الزواج" كان له أثراً طيباً بين الزملاء وخاصةً هذا الزميل الذي تزوج مرة على أساس "زوجتك

نفسي"..وصارت هذه نقطة نقاش بين الزميل وأحمد وكيف يكون الزواج صحيحاً بدون ولي..وعرف أحمد تفاصيل مأساة تكاد تكون قضت نفسياً علي شخصين من الدفعة وربما آخرين.

تعجب أحمد أن تملك الأمة هذه الجواهر النفيسة ثم تدفنها في تراب المساجد المُهمَلة التي بالكاد تفتح أبوابها للصلاة المكتوبة..وهذه الأجهزة الإعلامية المحسوبة على الأمة وكأنها تعمل ضدها تُخرِّب في نفوس الشباب بفيضان من الغناء العاطفي والموسيقي المنسابة على الأسماع لتُخدِّر النفوس وتقتل فيها الهمَّة والجدية..وذلك الطرح العَلماني للأمور الذي يهجر الدين ولا يترك له إلا قشور المعاملات والطقوس الاجتماعية كالزواج والطلاق والميراث.

بعد الجلسة،كان الزملاء يذهبون للعشاء وكان مطعم بورسعيد أحد الأماكن التي ذهبوها فباب اللوق مليئة بالمطاعم المتنوعة ولكن مطعم "التابعي" استأثر بهذا حيث المقاعد أكثر ولرفع الحرج عن أحمد..وبعد ذلك يجلسون في أحد مقاهي باب اللوق يتسامرون في الأمور الذائعة في حينها..ويتحدثون عن مشاكل العمل وتَلمُّس أول الطريق..وأحياناً يعيشون الأحلام الوردية التي يأخذ فيها الدين مكانه بين الأمم..كانت صحوة إسلامية في نهاية السبعينات أثَّرت على جيل أحمد وأجيال قبله وبعده..عودة إلى الدين..استيقاظ.

ساعد نظام "السادات" المفتوح بعض الشيء في إذكاء الصحوة..ذلك النظام الذي ترك الفرصة للدعاة في المساجد يؤكدون

مظاهر هذه الصحوة..قرأ أحمد حديثاً لأحد الأقباط تناول فيه تفسير ما جاء في سورة المائدة.."وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه.." وزعم أنّ هذا حُكم قرآني بأن يترك المسلمون النصارى يحكمون أنفسهم أو نحو ذلك..وقطع أحمد أوراق المجلة وأعطاها لإمام مسجد الأوقاف في باب اللوق..وتحمّس الرجل للرد..فمادام هناك إيمان بالقرآن على هذا النحو فلماذا يَترك الدين لغيره..وفي صلاة الجمعة التالية خطب الإمام بطلاقة وردّ على أمثال هذه الأقوال..وحذر وتوعد من أمثال هذه المُغالطات..وخرج أحد المصلين المسئولين بعد الصلاة وهاجم الخطيب وهاجم المصلون هذا المسئول بشدة ودافعوا عمّا قاله الخطيب والذي لولا حكمته ماانصرف المصلون في سلام..هذه القصة مَثل من أمثال الشد والجذب في إعطاء الدين حريته أم لا؟..أهل السياسة يتخوفون من النظرة الدينية لأنها ترد الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى وتجعل رزق العباد على الله وتوكلهم على الله ودعاءهم وتوجههم صباحاً ومساءً لله..إنهم يخافون أن تضيع هيبتهم وهيبة أقوالهم إذا ما أذعنوا لذلك..فكيف مثلاً يستطيع واحد من الناس أن يبشر بالتطبيع مع اليهود والقرآن مليء بالتحذير من غدرهم وخستهم وكراهيتهم للمسلمين على مدار التاريخ مع أشرف خلق الله من الأنبياء والمُرسلين فما الحال مع الأُميين..هذه الشعوب التي لا وزن لها عندهم..وكيف يستطيع أحد الساسة إعلاء كلمة "أمريكا" فوق مقدرات الأمة؟..إن الفرد المسلم يضع الأمور في نصابها ويقبل التحدي على إنه شهادة في

سبيل الله أولاً وأخيراً..فإذا ما انتسبت الأمور لله تعالى صَغُر أمامه أي معنى وأي مبنى وإن الذي يتوكل على الله تنتظم أمور حياته في اتجاه ا لله لا اتجاه العبيد هؤلاء المغرورين الذين يناطحون خالقهم ويحسبون أنهم ينتصرون ..فأي انتصار هذا..إنها خسارة كبيرة لهم شخصياً ولأتباعهم فقد خسروا الدنيا والآخرة ولم يغيروا شيئاً فدعوات الإصلاح الدينية تتكفل بمحو هذا الزَبَد كل فترة زمنية وشواهد التاريخ تدل على ذلك..فأين الذين أسقطوا الخلافة في بغداد؟ ..وأين الصليبيون الذين سيطروا على المسجد الأقصى حوالي تسعين عاماً؟.. وأين هذا الاستعمار الحديث الذي سيطر على الشرق أكثر من مائة عام؟..ومن قبل هذا أين ذهب الفرس و الروم؟..وأين ذهب الاتحاد السوفييتي؟ ..وأين ستذهب أمريكا وإسرائيل؟..وأين ذهبت الدعوات الشيوعية والإلحادية؟..وأين.. وأين؟..وعلى النقيض أين ذهب الإسلام؟..هل اندثر مثل الديانات القديمة التي كانت قائمة على الشرك وتعدد الآلهة؟..لقد مضى على هذا الدين أكثر من (١٤٠٠) عام وهو يتجدد دائماً على أيد العلماء حتى يَصير حياً يَتنفس يَسمع الجميع زفراته..إنه حيٌ دائماً.."فأما الزبد فيذهب جُفاءً وأما ماينفع الناس فيمكثُ في الأرض"..قانون إلهي يُنفّذ دائماً رغم أنف الطغاة.

استمرت هذه الجلسة طويلاً..وغيرت في نفوس مُريديها تغييراً مُحبباً فأضفت عليهم أدباً وحياءً وعلماً ومسئولية..في هذه الفترة شارك أحمد صديقه أحمد متولي في بناء مسجد في الحي..وشاركهم

كوكبة من الناس الطيبين الذين يظهرون وقت الحاجة..قام "أحمد متولي" بمجهودٍ عظيم منذ اشتري تاجر مسلم قطعة أرض في درب الإبراهيمي ونوى بناء مسجد عليها..ضمَّ إليه أحمد وآخرين ورفعوا التراب عنها وطلبوا التبرعات من أغنياء المنطقة الذين استجابوا جميعاً حتى أن أحد التجار النصارى واسمه "نسيم" تبرع بفرش المسجد بالأكلمة وكانت مفاجأة لأحمد.

وارتفع نداء "الله أكبر" في الحي من صوت جميل مؤمن راجع إلى الله وامتلأ المسجد عن آخره بالمسلمين..أين كان كل هؤلاء؟..لن يجمعهم إلا نداء الصلاة في مسجد..وانتعشت الدعوة الإسلامية في الحي بعد انقطاع طويل..منذ هُدم المسجد القديم في الأرض التي اشتراها والد أحمد وآخرون وأقاموا عليها بيتاً كبيراً..كانت درب الإبراهيمي عطشى لهذا المسجد وخاصةً أن كثرة من سكانها كانوا نصارى وأن الكنيسة المرقسية على بعد خطوات منها وأن المنطقة كلها تعتبر تجمعاً مسيحياً يؤثر بلا شك في تربية أبناء المسلمين في هذه المنطقة إذ كان الحي مسرحاً للتعايش السلمي أحياناً وفي معظم الأحيان للمشاجرات المهووسة..في آخر هذه المشاجرات مات شريك والد أحمد السابق في مطعم بورسعيد متأثراً بأزمة قلبية..ولم تشارك عائلة أحمد في هذه المعارك فقد كان جيران مطعم باب اللوق من النصارى وكان بينهم وبين الوالد وداً وكذلك أحمد..إن التعايش بين المسلم والمسيحي في باب اللوق كان عملياً لأنه حي تجاري الكل فيه مشغول

بأكل العيش..سوق مفتوحة فيها منافسة لجذب الزبـون حتى إن مطعـم بورسعيد كان يعرف رواجاً أيام صيام النصارى..أما درب الإبراهيمـي فشيءُ آخر حيث الشباب العاطل من الجانبين..وعلى حسب المناسبات ووجـود توتـر في العلاقـات بـين المسـلمين والنصـارى في أحـد الأحيـاء المصرية بل العالمية كانت المشاحنات والمعارك.

وأقيم أول فجر في المسجد وكان الإمام الشيخ أحمد أبو زيد رَحِمـه ا لله الذي أقام الصلوات والدروس في المسجد رجلاً فاضلاً قام بالمهمـة على خير وجه..وازداد النشاط في المسـجد ليشـمل العمـل الاجتمـاعي حيث تم مسح المنطقة أولاً ثم تحركـت التبرعـات إلى الفقـراء في بيوتهـم دون هـوان أو مذلـة..وأُعطيت لـلأولاد والبنـات أدوات المـــدارس والكراسات.. ومن الأُضحية التي كـان يجـود بهـا الحـاج فـايز صـاحب الأرض وآخرون وُزعت اللحوم علـى الفقـراء في الأعياد..وكـان أحمـد متولي هو المحرك لكل هذه الأمور وما يزال.

ولكـن الخـير لايـدوم كثـيراً..حمل الأمانـة جُهّـال وأولاد صغـار ومراهقون حسبوا أنفسهم علماءً كباراً..قابل أحدهم مرة في وفـدٍ وَفَـد إلى المسجد من صغار السن..وقالوا معنـا عالِم..شـاب صغـير لا يعـرف تجويد القرآن..أي عالِم هذا؟..وعرف أحمد أن هذه الشلة كـانت تخـزن سـنجاً وطوبـاً وآلات حـادة انتظـاراً للإغـارة علـى هـذا الحـي النصراني!..وقال لهم أحمـد لماذا؟..ولم يتلـق إجابة..اشـتكي ريـاض مـن شـكوى مماثلـة في مسـاجد المعـادي حيـث الخلافـات علـى أشـدها بـين

"الجماعات" داخل المسجد..أيهم يسيطر على المسجد؟!..ولم تتبنَّ الدولة سياسة واقعية لاحتواء هذا الشباب..بل اختارت المواجهة..وأغلقوا الأبواب على العلماء الذين هم مفتاح الخير في أي أمة..وكأنك تطفئ الرماد بمزيد من الجاز..واشتعل كل شيء فجأة..وانطلق الرصاص يحصد من في المنصَّة وأُغتيل "السادات" وآخرون..في هذه اللحظات كان أحمد يوزع لحم العيد مع أحمد متولي على الفقراء..أُغلقت أبواب الخير ولم يتمكنوا من ذلك..ونزل على الأمة غضب شديد..سحابة قاتمة.

خاف أهل السياسة من تكرار التجربة فازدادوا إغلاقاً للأمور صالحها وطالحها..وازداد الحمقى حمقاً وتكفيراً للمجتمع وبالتالي يعملون به ما يشاؤون..وبدلاً من خطب المساجد والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة،سرقوا المحلات وتعاركوا بينهم وتبادلوا مع الشرطة إطلاق الرصاص والحقد والكراهية والثأر..وضاع شباب كثير كان يُرجى منه خير..وتزمَّت خلق كثير كان يرجى منه خير..واضطربت الأمة.

ولكن الجلسة الطيبة أثمرت ثماراً طيباً فمعرفة الله لم تهتز في القلوب التي حضرتها..ربما للأبد.

تطورت العائلة..انتهى أحمد من الخدمة العسكرية و من كلية علـوم عين شمس وقد أضـاف إلى بكـالوريوس الهندسـة بكـالوريوس العلـوم في الرياضيـات..ثم سـجّل في الدراسـات العليـا في أولى الخطــوات إلى الماجستير والدكتوراه..وتزوج رءوف وأنجب..وتزوجت مروة وسافرت مع زوجها إلى السعودية وأنجبت..وخُطِبت مي وهي ما زالت طالبـة في تربية عين شمس..وتخرج حمـدي مـن معهـد السـكرتارية وعمـل في بنـك بالقاهرة..وانخرط عمر في المطعـم بعـد جهـاد مـع الابتدائيـة..جهاد مـن الوالدة رعاها الله..وكل هذا كان بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بـالعمل المتواصل لعم الشيخ وعطاء باب اللوق لهذه العائلة.

طلب الوالد أولاده يوماً وتحلقوا حوله في حجـرة الصـالون وكلهـم شـغف..وابتدأ الوالـد حديثـه بمفاجـأة : يـا أولادي لقـد تعبـت ،تعـالوا تحمّلوا أنتم المسـئولية..هيا أديـروا هـذا المطعـم!..ونـزل الكـلام عليهـم كالصاعقة..لقد انشغل كل واحد فيهم بدنياه الجديدة..أي إدارة؟..هـذا عمل يتطلّب تفرغاً..لماذا يا والدي؟..وأجاب الوالد : تدخلت الحكومـة في كل شئ في المهنة..إنهم يتحكمون في تموين الفول والزيت..ويضعون مقاييساً لوزن الطعمية ومكوناتها..ومقاييساً لطبق الفول..صرنا كالعبيد عنـــــد الحكومــــــة..والأخطر أنهـــــم يحـــــددون

الأسعار..فالأسعار ثابتة والبضاعة يرتفع ثمنها شهراً بعد شهر ولانستطيع عمل شيء..اتحد التجار وحاولوا إيقاف ذلك الشيء الذي يهدد المهنة..لقد أغلق الناس محلاتهم خوفاً من العقوبات التي تصل إلى السجن ناهيك عن الغرامات المتتالية على آلاف المخالفات التي تُكتب قسراً..لقد ألزمونا بشراء ميزان لوزن الطعمية كأننا في محل للكباب؟..لقد خنقونا..هذا شئ لايطاق..لقد عملت طوال عمري في هذه المهنة وكنا نطور أنفسنا مع الزبون دائماً ليأخذ منا شيئاً يأكله ويستطعمه..والآن صار السندوتش لايُؤكل..ولكننا لانستطيع عمل شيء..إن المهنة تنحدر وإغلاق المطعم أفضل أو تغيير نشاطه حتى نحافظ على سمعتنا.

ولكن إذا كان عم الشيخ لايستطيع إدارة المهنة فهل يديرها رءوف أو أحمد أو حمدي أو عمر؟..وتناقشوا مع والدهم لمعرفة ماذا يريد الوالد بالضبط؟..فهم لم يروه على هذه الحالة من قبل..وطمأنوه..ومازالوا به حتى هدأت نفسه وقد لاموا أنفسهم فقد تركوه وحده كثيراً وعليهم أن يعودوا إلى المطعم وأن يزوروا والدهم باستمرار حتى يأنس بهم ويشعر أنهم حوله..وهدأ عم الشيخ وقال لهم أنه فعل ذلك بسبب ضيقه ولكن انسوا ما قلت.

ومرت العاصفة بسلام ودأب أحمد على زيارة والده بعد العصر أو قبله حيث يريحه قليلاً ثم يعود معه إلى المنزل قبيل المغرب.. وكذلك فعل رءوف..وأخذ حمدي دوره يوم الجمعة فتحاً للمحل أو إغلاقاً

على حسب الظروف..ولكن الأمور المعوجة ما زالت قائمة..والتجار يتزمرون ويشتكون والزبون نفسه يشتكي من رداءة ما يأكل..واستمر الأمر كذلك حتى انحسرت القيود واحدةً بعد الأخرى..وعاد الأمر إلى ما كان عليه إلا "الزيت" فإنه ظل تحت قبضة الحكومة..حيث يجب تسجيل حصص الزيت المُستهلكة يومياً والويل لمن ينسى ذلك يوماً في التفتيش المفاجئ..الغرامة الكبيرة أو السجن ينتظر أهل المهنة.

مرّت الأزمة بتقارب شديد بين الأبناء و الوالد الذي تناسوه في خضم التطور الذي أظلهم..واصطحب أحمد أباه ورءوف إلى الأزهر كل يوم جمعة..وسافروا سوياً إلى الأسكندرية قضاءً ليومين ممتعين..وشعر الوالد برعاية أبنائه بعد أن افتقدهم.

رحلتا العمل والزواج..رحلتان طويلتان مرهقتان..خاضهما أحمد على سنوات طويلة وكانتا تختلطان و تؤثر في إحداهما الأخرى..انهمك أحمد في إنهاء متطلبات الماجستير..مقررات طويلة مرهقة ولكنه كان موفقاً..وكانت ثمرة إنهاء المقررات بنجاح هي سفره إلى مركز الفيزياء الدولي في تريستا بإيطاليا بمنحة سابقة من اليونسكو..كان ذلك طوال شهر أغسطس عام ١٩٨٢ لحضور ورشة العمل الأولى في الفيزياء الحيوية..تجربة جديدة مثمرة في حياته بلا شك حيث الاحتكاك بشباب العالم وسماع برامج علمية مكثفة في التخصص الذي أفاده فيما بعد في رسالة الماجستير..ثم إنها كانت إطلالة خفيفة على العالم الغربي ولكنه لم يكن "عصفور من الشرق" بل كان صقراً يعرف ما الذي يريده من هذا المجتمع بالضبط..إنه العلم ولا شيء غير العلم..عاد من هذه الرحلة أكثر ثقة بنفسه وقد شعر بالنجاح والتفوق وخاصةً وقد أنجز تقدماً طيباً في رسالته.

في هذا العام اقتربت منه طالبة، بالأمس القريب كانت تأتي إليه ليشرح لها بعض الموضوعات..ويذكر أنها أهدته يوماً ما كتاباً عن أضرار التدخين الذي قرأه واقتنع بما فيه فترك التدخين نهائياً..كانت ما تزال طالبة وكان مايزال غارقاً في بدايات البحث وإثبات النفس ولم يحمل لها شيئاً يتذكره في هذه الفترة..اقتربت منه في زيارات قامت

بها للقسم وللكلية بعد التخرج..وشعر نحوها بشيء من الاقتناع بشخصيتها ..وألح عليه عقله أن يقترب..واقترب وتبادل معها حديثاً تلو الآخر تظلله الآداب بعيداً عن هواجس الوهم وعدم الثقة بالنفس..ذلك الحِمل القديم..وبعد عودته من "تريستا" فكر في الزواج منها وحادث أهله بشأنها.

كان الأب عاطفياً مشجعاً وقد وجد ابنه قد وضع قدمه على سلم النجاح وأنه سيستمر فهو واثق من ابنه ولذلك شجعه..أما الأم فكانت تقيس الأمور بشكل مادي بحت..وتساءلت: ولكن كيف؟..وماذا يملك ابنك ومتطلبات الزواج كبيرة؟..كان ذلك غريباً وعلى عكس ما تآلف عليه الناس من روحانية الأم و مادية الأب الذي سيدفع كثيراً بلا شك إذا ما وضع يده في يد الناس والتزم معهم بكلمة شرف و ابنه ما زال شبه مُعدَم لا يهتم إلا بالإنفاق على البحث العلمي..ولكن هذا ما حدث..ربما يكون رد فعل لموضوع قديم حدث منذ عامين..عندما تقدم الابن الطموح و هو ما زال حديث العهد بالوظيفة متحمساً بالزواج من مُلتزمة ومن أسرة أحد الأصدقاء المُلتزمة دينياً..وظن أن هذا الحماس كافٍ للارتباط ولكن والد هذه الفتاة أعطاه درساً..فالزواج كفاءة..ومن يملك الباءة فليتزوج كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام..وفشل مشروع هذا الزواج مما جعله أكثر واقعية..ولذلك عندما قرر أن يتقدم لفتاته الجديدة قرر أيضاً أن يفض بكارته من الدروس الخصوصية..إنه محتاج لذلك..وأظنه يملك

الآن تكاليف الشَبكة وأشياء أخرى يسيرة..أما الشقة فيتكفل بها عام من الدروس والله هو المُيسِّر..هذه هي شخصية أحمد..إنه يخطط لشيء ما يملك بداياته ثم يُقدِم على العمل ويجتهد فيه ويتوكل على الله.

ولتكن البداية مع "الأمل"..وفعلاً سافرت الأسرة إلى المنصورة بالتاكسي المتبقي مع مصطفى السائق الذي سبق و وصَّلهم إلى "المعادي"..وكان انطباع الرحلة طيباً لدي الأب البشوش ومُقبِضاً لدي الأم التي لم تجد حديثاً عن التفاصيل يشبع نهمها..فمن يُحضر المطبخ ومن يُحضر السجاجيد؟..:إن هذه نقطة خلاف ..فالأم ترى أن مثل هذه الاتفاقات في التفاصيل ذات أهمية قصوى..فهذا هو الزواج..بينما أحمد يجدها تفصيلات مُمِلّة فأي طرف يُحضر أي شئ..المهم هو الزواج نفسه بين الروحين..ونمى هذا الخلاف ليؤدي إلى ثورة من أحمد على حديث عائلته ونقاش علني أمام الفتاة وعائلتها..وكان خطأً كبيراً هرب على إثره "الأمل" و أقدمت هي الأخرى على إرجاع الشبكة إلى أحمد برد فعل سريع وفي الكلية أمام باب حجرته..كم كان موقفا غريباً!.

ولايدري أحمد إلا وهو يحمل صديقه المهندس "سعيد سيف" حملاً إلى سيارته الفولكس البيضاء وطلب منه إيصاله إلى منزل العائلة في كلوت بك..ولملم كل ما للأمل من آثار..وعاد إلى صديقه الذي أوصله إلى ميدان الجيزة ثم انتظره ثلاث دقائق كانت كافية لإلقاء كل ما يحمل لأختها..وفشل كل شيء.

انهمك في العمل صباحاً ومساءً..هذا هو الحل وهذا هو طريق النسيان..وفي أثناء عبور هذا الطريق كوّن موضوعاً سريعاً مع زميلة من قسم آخر..كان متعجلاً..وعرض عليها الزواج..ولكنها كانت أنضج منه كثيراً ورفضت..كانت تعلم بموضوع الأمل..وتعلم أيضاً أن أحمد يطلب منها الالتزام والزواج..تغييرات كثيرة أعلنت تخوفها منها..وزادت الحيرة لدي أحمد ..هذه النفس التي لا تعرف الهدوء وتتعجل النتائج وتريد كل شيء.

وانهمك في العمل وقد أصبح ملجأه الحصين..ولجأ إلى ثوابته القديمة..الرياضيات..وإلى الثوابت التي لاتنتهي..حقائق الدين..يتمسك بها أكثر..لقد أخطأ فليس هذا هو الطريق..عليه أن يُكوِّن نفسه أفضل من ذلك..وأخذ يُراسِل جامعات أمريكية و كندية وجاءت بعض الردود مشجعة..ربما يغير هذا طريقه كله..فليعمل ولينتظر إن فَرج الله قريب.

وسرعان ما أتى فَرَج الله..رشحت له أخته زميلة لها في المدرسة والتي تقع قرب القناطر الخيرية..حلوة ومؤدبة ومُلتزمة كما تريد. هكذا كان تعليقها..وزادت :وعائلتها كذلك..وسُر أحمد من حديث أخته مروة..ورحبت الأم و سَرَّها ما رأت في الزيارة الأولى..وسارت الأمور بسرعةً لأن الأمر كله كان يمثل رنيناً فكرياً لأحمد..ها هي البساطة والالتزام مع الجمال والتعليم..ودَفَع الأمور في إتجاه الزواج..كذلك فعل والدها الحكيم..الرجل المُحنَّك في تجاربه الإنسانية والدينية..من الجيل القديم الذي يذكر الإمام حسن البنا بكل خير..حاول أن يُربِّي أولاده تربيةً إسلامية مُلتزمة وخاصةً في سنوات عمره الأخيرة حيث ازداد هو نفسه التزاماً بعد أن جذبته الصحوة الإسلامية من جديد كشأن الكثيرين من المصريين في هذه الفترة..وانعكس ذلك على بناته بالذات فكُنَّ ملتزمات محافظات على دينهن..وسُرعان ماتم عقد القران في مسجد الجمعية الشرعية بالقناطر الخيرية وحضره جمع من العلماء والأصدقاء فكان زواجاً مباركاً اتسم من البداية بالتيسير والتوفيق..بعد العقد انفرد أحمد بعروسه الجميلة في إحدى كازينوهات القناطر الخيرية البديعة..وودع عهداً من الأوهام والذي لم يعد تتضح له معالم في عالم النور الساطع الذي ملأ جوانحه.

وعمل أحمد بجدية ليحيل الزواج الافتراضي واقعاً..حجز شقة عند

أحد المقاولين..وبحث عن شقة صغيرة لتضم المشروع الإنساني الجميل..ووجدها له أحد الأصدقاء في حي الهرم والتي سرعان ما امتلأت بأثاث جديد يسير يناسب كل اليُسر الذي يحيط بالموضوع..وكان والده رائعاً..أمده بالمال و النصيحة وشجعه..وكذلك كان "منعم" وإيهاب وكامل ومصطفى رضا وأحمد متولي..الكل ساعد بالسيارات والإخلاص في الدعاء والصحبة والوفاء..وفي شهر أكتوبر صحب كامل بسيارته العروسين إلى عش الزوجية اليسير المكون من حجرتين صغيرتين في الدور الأرضي لأحد البيوت البسيطة في شارع الملك فيصل..كانت الدُخلة يسيرة ورائعة..صاحبهما جمع من العائلة..ثم انفرد بعروسه ليودعا معاً العالم العُذري..عالم الأوهام والظلال..إلى عالم المسئولية الإنسانية نحو التجدد والذُرية..ولكن بإحساس عالٍ من المتعة الحسية والمعنوية..وبانتصار للفكرة الإسلامية التي صاحبت كل خطوات الزواج من زيارة وخِطبة وعقد قران وتعارف وعشق ونكاح..لقد صاحبه منعم وإيهاب كمال في العقد وشاهدا بأنفسهما البساطة ثم تابعا خطوات الزواج وشاركا فيها بالمناقشة وربما يكونان قد تأثرا فلهما نفس نظرة أحمد في بساطة الحياة ورفض القيود الزائفة.

دخل أحمد على زوجته ومعه نقود قليلة هي التي تبقت بعد المشوار الطويل..وابتدأ مع زوجته رحلة صدق مع الحياة..رحلة تتآلف مع الإنسانية والإسلام والشريعة والتي هي الالتزام..لقد دفعه هذا الزواج

إلى مزيد من الجهد والعمل حتى أنهى الماجستير..يومها جاء مُشرفه إلى المنزل ليصطحبه إلى المناقشة..وتعجب من بساطة البيت وقال له الدكتور المسيري: أتسكن هنا؟..وقال له نعم مؤقتاً..فقال له ربنا يوفقك..ووفقه الله في المناقشة ثم في الإنجاب ثم في شراء سيارة فولكس صغيرة ثم في الانتقال إلى شقة أوسع وأرحب على الرغم من استيلاء المدعي العام على أموال المقاول الذي كتب معه عقد شقة الأحلام ثم إلى شقة أوسع وأفضل وسيارة أجدد وأجدد ودكتوراه وترقية فيما بعد الدكتوراه وأطفال يسعد بهم..وما زال الخير يأتي..إنه فيض الخير الذي غمر حياته منذ أن دخل على زوجته ولايملك إلا جنيهات قليلة العدد في جيبه..ولكنه كان يملك حلماً رائعاً وقلباً توّاقاً لتحقيق ذلك الحلم وإرادة زادها اليقين متانة وجسارة وإستقامة..إن الله إذا قال لشيء كُن فإنه يجب أن يكون.

مارس عم الشيخ دوراً رحيماً في حياة أولاده..ولم تنقطع معاونته لهم حتى بعد الزواج..كان يعزم رءوف وأحمد على الأسكندرية، وكان أحمد يأخذ سيارته فتكون الزيارة لطيفة ومُسلية..كثيراً ما كان أحمد يذهب إلى باب اللوق ويسلم على أبيه وهو في المطعم ويقضي معه بعض الوقت للاطمئنان عليه..وكثيراً ما اصطحبه إلى شركة "الريان" ليأخذ الدفعة الشهرية..وكان والده يسميها الربح..وكثيراً ما اختلفا بسبب ذلك.

زاره أحمد في المطعم يوماً ما ووجده يعمل بيديه خلف البنك..واستغرب أحمد: أين علي السيد؟..فقال له إنه تأخر ولم يأتِ..وتضايق أحمد من رؤية والده المعلم وهو في هذه السن بعد الخمسين وهو يعمل هذا العمل المرهق..وأوصاه عم الشيخ خيراً بزوجته بعد خلافٍ يسير معها..وقال له: خذها عليك شوية تستقِم العلاقة وتدُم..ولم يكن أحمد يعلم أن هذه الوصية هي آخر ما سمعه من والده..في اليوم التالي جمع الوالد الأسرة إلى البلد ولكن أحمد اعتذر بسبب انشغاله في الدكتوراه..وفي فجر اليوم التالي زاره خطيب أخته مي ومعه والدته..وشعر أحمد أن هناك شيئاً قد حدث..وصَدمه ما سمع ولكنه تماسك ولبس ملابسه ووصَّلهما إلى منزل العائلة إلى أخيه حمدي ثم ذهب إلى باب اللوق..إلى مطعم عم الشيخ..وذهب إلى عامل

الماكينة الأستاذ محمد عبد الحميد الوفي المخلص الذي كاد أن يُغمى
عليه من الخبر..طلب منه أن يعلن الخبر وأن يسلمه نقود المطعم فربما
يحتاجونها في البلد..وعاد إلى منزله وهو يحاول أن يجمع شتات
نفسه..وفي الطريق انسابت دموعه كالمطر..لقد انتهى الصبر والعقل
وأشرق الوجدان والحزن وطافت به الذكريات..أين عم الشيخ؟..أين
الوالد؟..أين المُربِّي؟..وانفجر في البكاء وكاد يفقد السيطرة على
السيارة..وأوصلته عناية الله إلى منزله..وأخذ الأولاد وسافر بسرعة إلى
البلد..وأصرَّ على رؤية والده قبل تغسيله..وجده نائماً في هدوء تكاد
ابتسامة هادئة تكسو وجهه المشرق..أو هكذا تخيل..ودعا له ثم غلبه
البكاء..وأخرجوه من الغرفة..وغابت عنه تقاسيم وجه أبيه ربما للأبد.

مات والده فجأة وهو يمسك بقلم كان يخط رسماً للمنزل الجديد
الذي كان ينوي أخوه رجب بناءه في الغيط..أخذ يشرح له تفاصيل
التصميم اليسير الذي وضعه أحمد..سقط القلم من يده وانحنى الجزع
واصطدمت رأسه بالمنضدة..خرجت الروح..انقطع فيض الخير..لايذكر
أحمد أن عم الشيخ حمل حقداً أو كُرهاً لأحد حتى هؤلاء الذين أساءوا
إليه..ومشيت البلد كلها وراءه..ودُفِن في المكان الذي تمناه..وانهار
أحمد وهم يضعونه في القبر..وقال إبراهيم عديل أحمد كلمات ذكَّرت
الناس بأن الله حي لايموت وأن الصبر في الصدمة الأولى وأنه يجب
الترحم على من في القبر فالله وحده يعلم كيف

حاله..ومرّ اليوم كئيباً ثقيلاً وهم يستقبلون المُعزّين الذين أتوا من القرية ومن القاهرة..وارتمى أحمد في نهاية اليوم نائماً بعد عناء يومٍ طويل.

اجتمعوا في مساء اليوم الثاني ليفكروا ويقرروا ما يجب عمله خاصةً وقد قرر عمال المحل وعلى رأسهم علي السيد الاستمرار في فتح المطعم من اليوم فبورسعيد عم الشيخ لن يغلق أبداً..إذن فالمطعم مفتوح ولابد له من إدارة..ومُدير..بل لابد للتركة كلها من رعاية..لابد أن تقع المسئولية على الكبار..على رؤوف وأحمد إذ لم يربطهما الوالد بالمطعم بخيوط الحرير إلا لهذا اليوم..تبادلوا حديثاً عن تفرغ رءوف ولكنه كان حديثاً عاطفياً من وحي الساعة..وبعد ثلاثة أيام غادروا القرية والحزن يلفهم جميعاً..لقد عادوا من غيره وقد كان جوهرتهم الغالية..وبات في ظن الجميع أنهم سيمرون بأيام صعبة.

مرّ أحمد ورءوف على المطعم يشجعهما العمال على الاستمرار..فاستمروا..وأخذوا ينظمون العمل كما دربهم عم الشيخ..وطافت بهم ذكرى عم الشيخ..هنا وهنا وهناك..كانت الأيام الأولى كلها دامعة..وفي ليل أحد الأيام الأولى زار عم الشيخ أحمد وجمع إليه قبضته في حزمٍ شديد وأشار بها إليه..وقال له:أنت..أنت..أنت..لقد كان الحلم مُقبضاً عكس كل ما في صدر أحمد من حزن وضيق وخوف..وشعر أحمد بالمسئولية كما شعر بها رءوف..وقال له المُحاسب الأستاذ حسن المنياوي..اجمع إخوتك

ولاتُفرقهم..وكان نِعم الصديق في الأزمة..فقد وجده أحمد يحمل لذكرى الوالد وفاءً نادراً محبباً..وعلى الرغم من المشاكل التي كانت تُحيط بالدكتوراه وانهيار موضوع قديم وناجح وابتداء موضوع جديد وصعب إلا أن المطعم استأثر بمعظم الوقت..وابتدأت سلسلة من الإجراءات من إعلام الوراثة ومحكمة القُصَّر وتعيين علي السيد مُديراً مسئولاً بمرتب مستقل..وعمل تعديل في الرُخصة..وأشياء أخرى كثيرة..كذلك مشاكل التاكسي مع مصطفى السائق و نقل ملكيته إلى الورثة وذهاب أحمد معه في التجديد في التبِّين في آخر ضاحية حِلوان..كل هذا والمشاكل المادية الطاحنة تزداد عليه ما بين عجز صاحب البيت الذي يسكن فيه عن بناء الشقة العُلوية التي اتفقا عليها بل وانهياره المالي حتى بات مجرد استعادة المال أمرٌ صعب..وبين التزامه بقراره السابق بعدم إعطاء دروس والتفرغ التام للدكتوراه مما جعله في ضيقٍ من العيش.

اتفق الأبناء على جعل أمهم الصندوق أو البنك الذي ترجع إليه أموال التركة الصغيرة..فغلّة المطعم تذهب يومياً إليها كما عودها الوالد..لقد اتفقوا على عدم إشعار الأم بأي فارق مادي..ويتم تقسيم المال كل فترة مناسبة على حسب الشريعة فللأم الثمن وللذكر مثل حظ الأنثيين..وجاهد أحمد في ذلك..وأعدَّ دفتراً للتقسيم يوقع فيه الأبناء أمام الأم..وكانوا يجتمعون في منزل العائلة كل أسبوع لتأنس الأم بهم وتنسى..ونقل أحمد ملكية عقد الريان إلى الأم بعد عمل

الإجراءات القانونية بالشركة..وصار يصرف لها الدفعات بانتظام..كأنها الوالد رحمه الله..ورتّب الأبناء لأحمد ورءوف مالاً نظير الإدارة وما كان أحمد ليقبله أو رءوف إلا بسبب ضيق ذات اليد..هذا الضيق نفسه كان هو المسئول الأكبر عن ضغط أحمد لبيع شقة الأسكندرية على الرغم من حبه الشديد لها وسفره ورءوف المستمر إلى الأسكندرية لدفع الأقساط حتى حانت لحظة الاستلام..كانت في شارع خالد بن الوليد في سيدي بشر وهي منطقتهم المفضلة ومحل ذكرياتهم الجميلة في مصيفهم المفضل..ولكنهم كانوا مثل من لايجد ما يأكله ويمتلك سيارة فاخرة فإذا استعملها كان عليه أن يصرف عليها من قوت أولاده..كان امتلاكها ضرباً من الجنون..وفي الزيارة النهائية قبيل الإستلام انفرد أحمد برءوف في مقاهي الأسكندرية المفتوحة على البحر وفي فندق "مرحباً" محل ذكريات الوالد وفي مطاعم المنشية العريقة وفي محلات وسط البلد التي لها طعماً خاصاً وفريداً..برهن أحمد لرءوف على ضرورة بيع هذه الشقة قبل الاستلام..لو استلمناها فلن يبيعوها أبداً..نحن نخوض معركة مع الحياة لايشعروا بها فنحن المسئولون أولاً وأخيراً ومعظمهم لايرى فيها إلا المتعة..واقتنع رءوف أخيراً وحدثنا السمسار محمد رحّال صديق الوالد وفي أربعٍ وعشرين ساعة كانت الشقة قد بيعت وبعدها بقليل وزعوا المبلغ وأخذ كل طرف نصيبه..وردَّ أحمد دَين أخيه عمر الذي كان قد أخذه منه لينتقل

إلى شقة أرحب وأوسع..واشترى حاسباً آلياً..مما لاشك فيه كانت

هذه الأشياء أهم عنده من متعة الأسكندرية التي ضحى بها..ولكن أفراد الأسرة ما زالوا يذكرون هذا البيع بضيق شديد..لقد أضاع أحمد منهم هذا الحلم..ولم يحقق حلم أبيه..ويعلم الله أنه أكثر المتضايقين.

ها قد عاد مرَّةً أخرى إلى باب اللوق حيث المسئولية والإدارة.حيث النجاح والعمل والقرارات الهامة في حياة مجموعة من الناس..حيث الاحتكاك المباشر بالمجتمع من نافذة المطعم الرحبة..ونجح مع رءوف في تسيير دفة الأمور.

تزوج أخوه حمدي في شقةٍ كتب عقدها أحمد بنفسه بعد أن حل مشكلة مع حِمدان صديق عم الشيخ الذي كتب له عقد شقة في منزل يملكه مع بعض أقربائه ودفع له عم الشيخ مقدم الإيجار..وكانت الشقة الجديدة على نفس المستوى تقريباً وفي بيت جيد..وتخرَّجت مي من كلية الأداب وتزوجت من خطيبها، وقد حافظت العائلة على عهد عم الشيخ له..وكانت فرحة كبيرة للأم وللأبناء والعائلة..ورُفع ضغط عظيم على أحمد ورءوف وكان إتمام الزواج هدفاً في حد ذاته طالماً شغلهما..وضغط أحمد على عمر والعائلة حتى يستقل عمر بشقة الزوجية في المستقبل..اعترضت الأم في البداية فهي تريد عمر بجانبها ولكن استقلال شقة العائلة كان عند أحمد مفتاحاً لراحة والدته نفسها..الراحة الممكنة الدائمة..وظل بيت العائلة مفتوحاً من خير باب اللوق..وبعد سنوات قليلة إضطروا لبيع التاكسي وودعوا أخاً كريماً عاصر أحلام أحمد في المعادي والمنصورة والجيزة والقناطر..وكذلك عاصر أفراح العائلة وأحزانها..زاره أحمد في إدارة الكهرباء بعد

سنوات ووجده يحمل الذكريات نفسها..لقد كان أخاً أميناً بلا شك.

لكن إدارة مطعم ليست بالشيء اليسير..إن لم تكن رقابة مستمرة واقتراحات دائمة للتطوير ومتابعة شراء البضاعة على أحسن ما يكون والمكث في المطعم بشكل شبه مستمر فإن الإدارة تصبح وهماً..ولكن رءوف وأحمد لايملكان إلا هذا الوهم فمن أين يجيئا بالوقت للنجاح المطلوب..وراقب أحمد تطور أخيه عمر الذي يستطيع وحده أن يحل مشكلة الإدارة، فهو إبن المطعم وتلك حياته لا بديل لها..ولكن عمر خذل الجميع فهو لايهتم بشيء غير ما وُكّل إليه..لايُراقب شيئاً دخل أو خرج ولايهتم بأمر بضاعة قادمة ولم يشرب الصَنعة كما يفهمها العمال..يوماً ما عرض أحمد على عمر نصيبه في المطعم ورفض عمر فهو ليس له طموح..ولعل هذه رحمة كبيرة من الله سبحانه وتعالى فالنقيض سيكون مُدمراً لنفسه وللعائلة.

ومرت السنوات ليهدأ المطعم هو الآخر إذ صار بلا طموح..ومن أين يستمده؟ فنشاطه ما زال كما هو..كما تركه عم الشيخ بلا تغيير..وأحمد لايستطيع عمل شيء..إنه يداوم في الجامعة صباحاً حتى الظهر ثم يجري بسيارته الصفراء مخترقاً شوارع القاهرة المزدحمة وبالكاد يجد أو لايجد مكاناً لسيارته..ويجري إلى المطعم يحاسب ويسأل عن الأحداث ويتعامل معها بما يستطيع..ويظن أنه قد رتّب الأمور..ثم يجري ليلحق بسيارته قبل المخالفة ويعود في الزحام الشديد إلى مدارس البنات ليأخذهن إلى المنزل ويخطف لُقيمات الغداء ليعود مرة أخرى

إلى الكلية للدراسات العليا أو ليقوم بأي عمل آخر..وكيف يتفرغ لباب اللوق وهذه حاله؟..وباب اللوق لاتأبى إلا تفرغاً.

تحمل ضيق شقته بحزن شديد..وفرض هذا عليه الخروج الكثير منها هارباً سواء وحده أم مع عائلته..كان عليه أن يتحمّل هذا السقوط المريع في الألفاظ والتعامل داخل الحي الشعبي الذي يسكن فيه..ثم كان عليه أن يتحمل تلك الساقطة التي اشترت بيتاً مواجهاً وأخذت تتعامل مع الساقطات مثلها ليمتلأ الحي بذاءة وقذارة..وهو غير قادر على أن يحلم..مجرد الحلم..بأن ينتقل إلى شقة جديدة أخرى في مكان نظيف آمن لتربية البنات..كان يهرب بالبنات وبزوجته إلى وسط البلد..إلى باب اللوق..حيث المطعم ليعتاد البنات عليه وحيث أكلة شعبية مثل الكشري أو غيرها للعشاء وحيث بداية التمشية في شوارع وسط البلد التي هي جزء كبير من عقله ونبضه.

كان قد نجح في إنهاء الدكتوراه بعد جدل طويل في القسم..عطله هذا الجدل ستة أشهر كاملة في بدايتها رزقه الله بالتوأم منار وفاطمة بعد مروة ومي..لقد سأل الله ولداً فأعطاه توأماً إناثاً..وشكر الله كثيراً على صحة الأم والبنتين..إن الله يهب من يشاء ما يشاء.

إن الحياة جهاد وقد تعلم أن يجاهد ويجاهد حتى ينام مرهق القلب والعقل كل يوم..ثم إن حركته في الحياة يجب ألا يحدَّها هذا الصخب اليومي..صخب الأولاد والمنزل والعائلة..يجب أن ينتج شيئاً ما ذي قيمة..علم..أدب..ولذلك لم يتوقف عن التطور ومعرفة الجديد في

مجال تخصصه الدقيق والعام..وكان إنتاجه العلمي غزيـراً رغـم البرنـامج اليومي الثقيل.

ثم لابد أن يتمسك بـاليقين الـذي ينسـاه معظـم النـاس أويتناسـونه ولايذكرونه إلا في القليل من أوقاتهم..مأأعجب هـذا المعنـى ..إن حيـاة الناس وحركتهم المستقبلية كلها احتمالية..فليس فيها اليقين الذي يجعل كل منهـم يرسـم لنفسـه حياتـه كمـا يشـاء..ما حيـاة النـاس إلا تراكـم أحـداث احتماليـة بالنسـبة إليهم..أمـا المـوت فهـو اليقين..ووجـود الله سبحانه وتعالى فهو اليقين..وإنذار الرسل للنـاس فهـو اليقين..والكتـاب المنزل من عند الله بلا تحريف فهو اليقين..لايجب أن ينسى النـاس ذلـك أبداً..ولكن معظم الناس يحيى هذه الحياة وهو لايفهـم لمـاذا خُلـق ولمـاذا يموت..ساعات تمضـي وتسـرقه فإذا أفـاق وجـد نفسـه ضائعـاً وهائمـاً وغارقـاً في الاحتمـالات الـتي يسـميها النـاس تخطيطـاً وطموحـاً ومستقبلاً..بينما النـاس غـارقون في الوهم..فإذا مـات أحـد الأصدقـاء وشـاهدوا جثتـه تتـوارى في القـبر المظلـم الغـامض انتبهـوا بعـض الشيء..ومنهم من تنمو يقظته ومنهم الغافل ..إن هذا القـبر إمـا روضـة من رِياض الجنة أو حُفرة من حُفَر النار..هذا هـو اليقـين الـذي يجب أن يعمل له الناس وألا يتناسـوه أبداً..فـأين صَلاتهـم وزكَوَاتهـم وصومهـم وحِجُّهم وأين أعمالهم الصالحة وتوادُهم وتراحمهم..وأين حرصهم على تجديـد هـذه المعـاني وصيانتهـا في المجتمـع وذلـك بتطبيـق شـريعة ربهـم والحـرص في عـاداتهم وتقـاليدهم علـى

معايشة اليقين لا الاحتمالي..لقد تغير الناس كثيراً..أين ابن البلد الذي كان متمسكاً بالشهامة والحق وعدم قول الزور وحب الخير للناس والعمل في سبيل ذلك..كأنها تعاليم الدين قد تحولت داخله إلى أحاسيس دفينة تحركه صباحاً ومساءً..ولكن هذا كله قد تغير..طغت الأنانية وحب الذات..وساء المظهر والجوهر وتدنى السلوك..ولم يعد يعبأ بما يجرى حوله من تصرفات تسيء إلى الدين والإنسانية..بل صار جزءاً من الإساءة.

لقد تمسك أحمد بكتاب ربه..حاول ألا تنسيه الحياة ما تحتويه دفتا الكتاب من اليقين الذي يسعى إليه دائماً..لقد استقر الموج داخله ولن يعود إلى الاضطراب مرة أخرى..وحتى يحافظ على اليقين كان عليه أن يصادق ممن هم على شاكلته..أُناس يبحثون عن الحقيقة ويقدِّرون الأمور بقدرها..أناس لا تُلهيهم تجارة عن ذكر الله..لقد بدأت الصحوة الإسلامية في مصر ولن تنتهي وسيكون هناك شدٌ وجذبٌ حتى يفيء معظم الناس إلى أمر الله..أمَّا الحمقى والأغبياء فسيظلون على حمقهم وغبائهم..ولن يروا من هذا الدين إلا بمقدار أبصارهم العمياء..فقد دخلوا فيه كما خرجوا منه..وأضلوا وشردوا بدلاً من أن ينتشر الإيمان والحق على أيديهم..أصبحوا مشاعل تحرق وتدمر بدلاً من أن يكونوا شموعاً تضيء وتهدي.

لابد أن ثمَّة جماعة ما زالت ترى الحق وتبصره..إن الله قد تعهد بإحياء هذا الدين كلما قارب على الموت في النفوس..ولن يموت هذا

الدين أبداً..ولن يُحييه إلا الله بجهود رجاله المخلصين..إن الله لا يضيع جهد عامل من العاملين في سبيله..لقد اقترب أحمد خطوات إلى الله فحول الله أحمد من الشك إلى اليقين ومن الفقر إلى الغِنى ومن الشقة الضيقة إلى الشقة الواسعة فالتمليك ومن السيارة القديمة إلى السيارة الحديثة فالجديدة ومن الوهم إلى الزوجة الصالحة فالأبناء ومن الانعزال إلى الرَحِم والأخوة في الله..ومن ضيق الدنيا إلى رحابة الإيمان بالله..بل مكنه الله من العمرة فالحج عن نفسه ثم الحج مع والدته عن والده رحمه الله.

ولقد التف الأولاد حول الأم..وفاض عليهم خير باب اللوق..حتى تزوج أصغرهم ..حَدَّثَ والدته ذات مرة بالهاتف من مكة المكرمة حيث إعارته..وسألها كيف حال عمر؟..وقالت له: لقد تزوج..وشاهد الدمع في كلامها..وقالت له: الحمد لله لقد وفينا الرسالة..أنا مسرورة كما لم أكن من قبل..وقال لها : نعم يا أمي..أنتِ وأبي..لقد وفيتما الرسالة..نعم يا باب اللوق لقد وفيتي..لقد وفيتي.

د.مجدي الطويل

مكة المكرمة

محرم-١٤١٨

يونيو-١٩٩٧